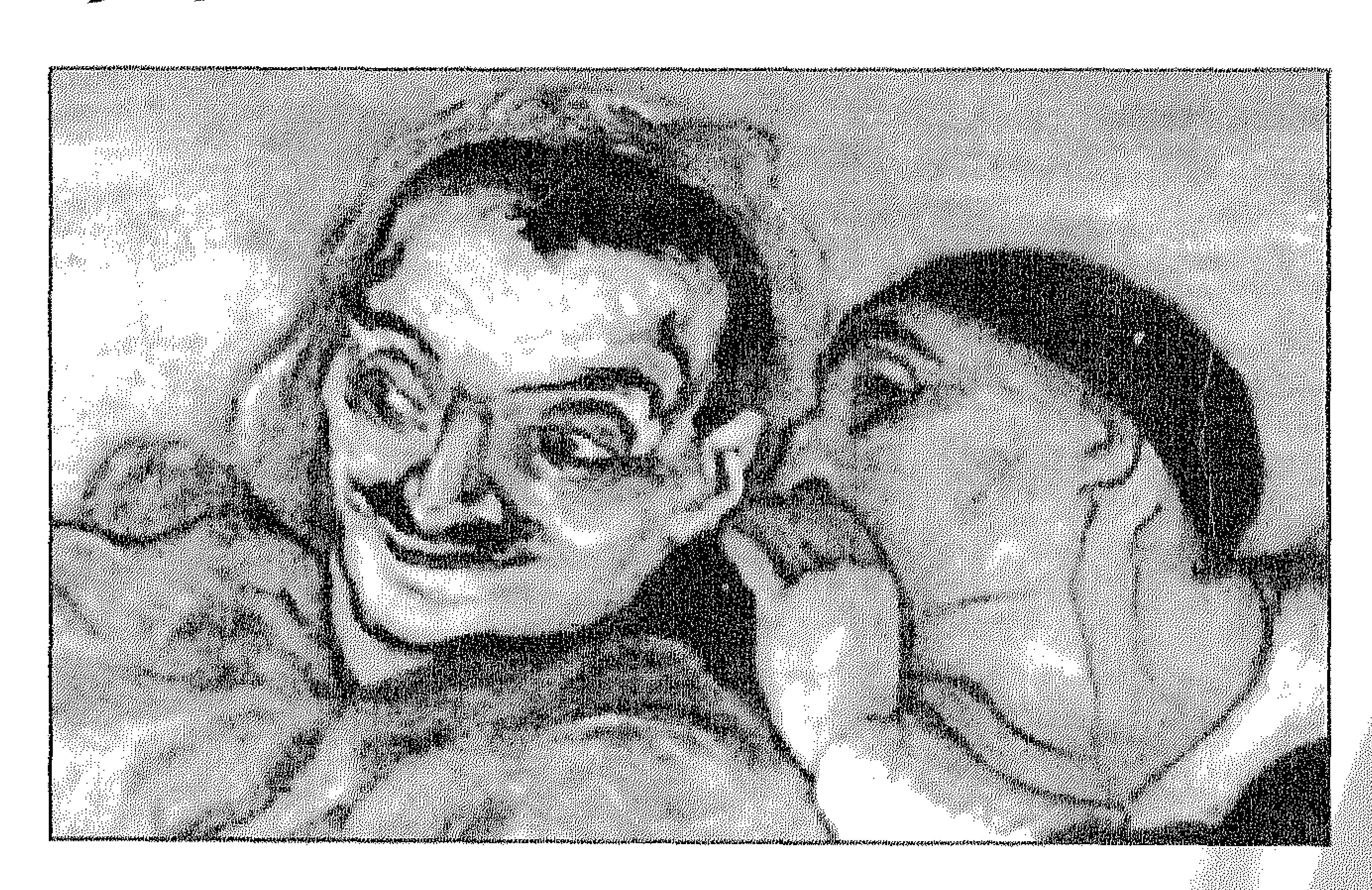
كتاب النجمة

نبلاء وأوباش

القسم الأول



سليمان فيـــاض

إهـــــــداء ٢٠٠٦

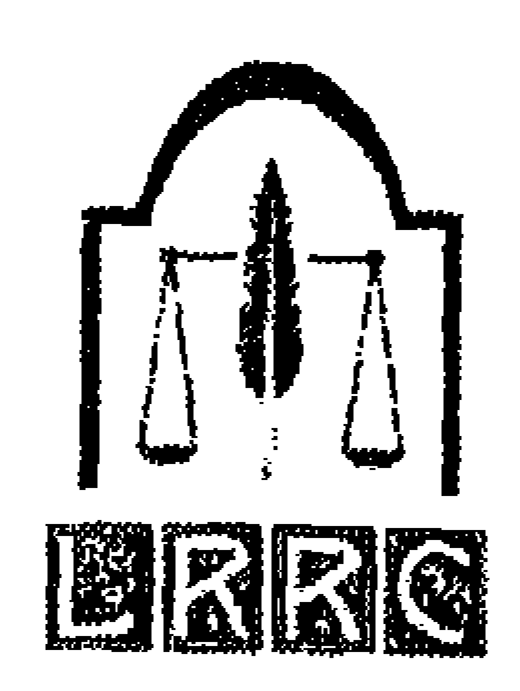
المرحوم / يوسف درويش
القاهرة

كتاب النميمة

نبلاء وأوباش

(القسم الأول)

سليمان فياض



الكتاب : كتاب النميمة: نبلاء وأوباش !

الكاتب : سليمان فياض

الناشر : مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان

لوحة الغلاف : الفنان العالمى دوميية «النميمه»

تصميم الغلاف : الفنان جميل شفيق

تجهيزات الطباعة : LRRC

تنفيذ الغلاف : عبد العزيز الشبينى

الطبعة الأولى : ١٩٩٦

٧ ش الحجاز ـ روكسى ـ مصر الجديدة .القاهرة . جمهورية مصر العربية .

تليفون : ٤٥٢٠٩٧٧ فاكس : ٢٥٩٦٦٢٢ / EMAIL : LRRC@FRCU.Eun.Eg

إهــداء

إلى من جعلت من عذابات

عمرى .. ذكرى ماضية

.. إلى صديقتى : سمر إبراهيم

وإلى الأجيال الجديدة

تذكرة بأن الإنسان تاريخ

وموقف

فلا سر يخفى

ولا شهادة تموت

سليمان فياض



نميمة لابد منها

النميمة هى: الكتابة، وهى: صوت الكتابة الخفى، ووطء الأقدام.

والنمّ هو: الظهور بعد خفاء، وانتشار الرائحة الطيبة أو السيئة من الأكمام.

والنّمّة واحدة النمّ: لمعة من بياض فى سواد، أو لمعة من سواد فى بياض.

ولأن النميمة هى الكتابة، وصوتها، ورائحة كاتبيها، ودرجة ما فى حياتهم وكتاباتهم، من سواد فى بياض، أو بياض فى سواد، أسميت كتابى هذا: كتاب النميمة، وكرسته للقراء عن الكاتبين: النبلاء منهم والأوباش. الشرفاء منهم والسفلة. من آثروا العلو والارتفاع، ومن آثروا الانخفاض والتسفّل، ومن ترفعوا عن الصغائر، ويعيشون ويموتون بين المساكين، ومن يعيشون مثل سفلة الشجر والنبات، مثل النِّمنم الأبيض على الظُّفر، ورَقَط الجرب يتفشى فى جسد البعير. المتعففون منهم والأخساء الرذلاء.. و.. من كانوا وسطا بين أولئك وهؤلاء.

ولم أفرق فى كتابى هذا بين قسمىْ النبلاء والأوباش، فبينهم نبلاء أوباش، وأوباش نبلاء، فى آن واحد، ونموذج واحد، ممن خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. قد يرجح هذا، وقد يرجح ذاك.

وليس كل النمّ طعنا فى الظهر، ولا وشاية بآخر، كما يقول الأخلاقيون، والمتدينون. فمن النمّ، فى اللغة والأدب، ماهو إظهار لخفى، ونشر لرائحة طيبة كانت أو خبيثة، وكشف لجمال أو قبح.

وهل يفعل، سوى ذلك، الكاتبون، من المبدعين والنقاد؟

أنا إذن، فى هذا الكتاب نامّ، ونمّام، ونِمّ، ومُنِمّ، ونميمتى هى عن هذه الظواهر الثقافية، ونماذجها من النبلاء والأوباش، ومن هم بين بين، فى النصف الثانى من القرن العشرين. وأعلن أننى لم أقصد فيها أحداً بعينه، سوى من ذكرتهم بالاسم من النبلاء، فالآخرون كلأ مشاع، ممن تجمعهم مصادر فِعالة، من بقايا الأشياء، ونُخالة الناس.

وفصول نمائمى تتأرجح بين التأريخ لما يهمله التاريخ وينساه، عن الظواهر والبشر والأسرار. وهذه «البورتريهات» التى كان أستاذنا «الصوفى» يؤثر أن يسميها «لوحات قلمية». والبعض يسمونها: «صور أدبية»، أو «قلمية» أو «قصصية»، وهى فى النهاية قص من القص، وتتبع للأثر بالقص، وشهادة من الشهادات، عن جيلين من المثقفين الكتاب، ولون من ألوان المذكرات الشخصية، تروى وقائع فى أكثر الأحيان، وتقع فى أخطاء التقييم فى بعض الأحيان.

ولهذه البورتريهات بقية، فى قسم ثان من كتاب النميمة.

سليمان فياض

الأستاذ

لا أعرف على وجه التحديد، مـاذا كان يمكن أن يؤول إليه أمرى مع القـراءة والكتـابة والثـقـافـة، خـارج دراستـى الأزهرية من الصف الأول الابتدائى، إلى الصف الخامس عشر الجامعى، لو لم ألتق بالأستاذ الأستاذ. لكننى أحدس أنه لو لم يـقيض لى الالتقاء به، ولـو لم يتكرر هذا اللقاء، لتنمو فى ظل هذا التكرار صداقة حميمة، ومحـبة عميقة، واحترام شديد، لكنت ذلك الأزهرى، المقطوع الصلة بثـقافة العصر وعلومـه، خارج علوم الأزهر المحدودة العدد والكتب، والأسيرة فى القرن العشرين، لعقلية عصر المـاليك والأتراك العثـمانيـين، وإنجازاتهـا الثقـافيـة من المتون والـشروح والحـواشى والتـذييـلات، فى علوم الدين والعـربيـة، ولربما حـرمت، أو تأجلت طويلا، صلتى بعلوم: الاجتماع، وعلم النفس، والفلسفة الحديثة، والمنطق الحديث، والسـياسة، والاقتـصاد، وسواها من علوم العـصر، بل وآدابه وفنونه.

البداية :

كانت أسرتى قد انتقلت من مدينة «السمبلاوين» إلى مدينة «المنصورة» عـام ١٩٥٠ بانتقـال عمل أبى من سكرتـير لمدرسـة البنات الابتدائيـة إلى

سكرتير لمدرسة الأيوبيــة الثانوية. ومع الأسرة انتقلت فى العـام نفسه، فى أجازة الصـيف، إلى المعهد الدينى بالمنصـورة، فى أول سنة أنشئ بها ذلك المعهـد، وكنت قد اجتزت الصف الثـانى الثانوى بمعهـد الزقازيق الدينى. وتوقـفت بهذا النقل سنوات غـربتى ووحدتى بعـيداً عن الأسـرة وسنوات محاولة العيش والسكن بمائة وخمسين قرشاً فى الشهر، لكننى حرمت حقاً من حرية المغترب الأعزب، المتصعلـك فى الزقازيق، وأحيائها، ومراكزها، وقراها، ومن مواصلة الخبرة الحقيقيـة بقيعان المجتمع. وحرمت من شاطئ بحر مويس وأشجاره، ومراقبة قطارات الانجليز ومعسكراتهم، وحرمت من مكتبـة بحر مويس، التى قـرأت بها مجلدات من القـصص البوليسـية عن مـغامـرات طرزان، وباردليـان وفوسـتا، ورروكـامـبول، وروايات الجـيب الشهـيرة، وحرمت من التنقـل بين أعمال جـانبية فى التـجارة، والنسخ، وحرمت من الصعلكة والفرجة فى بلاد الله، على خلق الله.

استقر بنا المسكن فى شقة بشارع مـتفرع من سوق الخواجات، وصار همى هو البحث عن مكتبة المنصورة، حتى عثرت عليها، على شاطئ النهر بحىّ المختلط. كانت مكتبة بيضاء، يصعد إليها الزائرون بدرج من الرخام، تطل نوافذ قـاعتهـا الكبيرة على النـهر، ونرى منها درجـا نازلا إلى المياه. وعند أدنى درجة كانت حلقات حديدية لقوارب كانت تشد حبالها إليها فى زمن مضى، وكان مبنى المكتبة فيـلا للاستراحة، يقولون إنها كانت لإحدى الأميرات وإنها كانت تأتى إليها فى شهور الشتاء والصيف، حبا للمنصورة، عروس النيل، وأجمل مدائن دلتا النيل.

من جديد، عـاودت مطالعة قصص المـغامرات فى المكتـبة، وعكفت عليهـا عكوف مدمن، فى ساعات الصـباح والمساء التى تفـتح فيها المكتـبة أبوابها للقارئين. وكنت لسأمى من دراسـة الأزهر، وتكرار علومه، وكتبه، أعطى لملاحظ الغياب بالمعهد جرايتى الشهرية (٢٥ قرشا) مقابل أن يسجلنى

حاضرا للدروس كل يوم. وظللت أياما، أياما فقط، أقرأ قصص المغامرات، سبع ساعات فى كل يوم، أربع منها فى الصباح، وثلاثة فى المساء.

اللقاء الأول :

فوجئت عصر يوم، ولم يكن قد انقضى علىّ أسبوع بمكتبة المنصورة، بذلك الشاب الفتى، الناحل العود، الواسع العينين، البارز عظام الوجنتين، يترك مكانه على منضدة للمطالعة، ويأتى بكتابه ويجلس بجانبى، على منضدتى. كنت أراقبه عصر كل يوم بدهشة فلم يكن يأتى للمكتبة إلا مع العصر، وكان دائماً يلبس جلبابا على اللحم، ويضع فى قدميه قبقابا، وكان دائما حاسر الرأس، حليقه، ولايتجاوز طول شعره نصف سنتيمتر. وكان مظهره هو سر دهشتى، وكان الوحيد بين قراء المكتبة الذى يبدو بهذا المظهر الفردى، العجيب، وفى مكتبة لها احترامها، وفى مدينة حريص أهلها على حسن المظهر حين يغادرون عتبات بيوتهم، أو على الأقل أبناء الطبقة المتوسطة منهم. قال لى:

ـ تسمح؟

وسحب الكتاب الذى أقرأ فيه، وقال لى:

ـ كم عمرك؟

ولم أضق به. وبدأ التعارف، بحوار هامس، فنحن فى حرم من حرمُ المعرفة. أثار صوته الريفى القوى، وتحدد مخارجه، وقوة نطقها، فضولى، مثلما تثير هذا الفضول شخصيات المغامرات. فى قصص المغامرات. ولم نطل المكوث ذلك اليوم بقاعة المطالعة، فخرجنا إلى كورنيش بجانب المكتبة، وواصلنا التعارف والحكى، على سور الكورنيش، ولم يخف عنى

منذ ذلك اليوم، سخريته من قراءاتى ولاتهكمه على إدمانى القراءة للقصص، فهى فى رأيه «لعب أطفال».

مكتبة المنصورة :

كانت مكتبة المنصورة مكتبة فريدة فى نوعها كمكتبة بالأقاليم. كان بها ثلاثون ألف كتاب. وكان أمينها شيخاً معمما يلبس الجبة والقفطان، وكان سمينا للغاية، لا هم له طوال وجوده فى المكتبة سوى أن يغفو، ويصحو لأول نأمة، وكان ملاحظ المكتبة المعير لكتبها شابا أعجف يهوى تصليح الراديو، بل وصنع الراديو يدويا من أشلاء راديوهات قديمة، ويهوى الرسم على الزجاج لصوان منزلية يصنعها بيديه، وكثيراً ما كان هذا الملاحظ يتخلف عن الحضور إلى المكتبة، فيقوم به من سيصير لى أستاذًا، ويزيد عليه بتوجيهه للقارئين المستعيرين، بصوته القوى الهامس الهادئ.

وإلى هذه المكتبة كان يتردد: شاب أزهرى، مرووش، غدته الدرقية لا تجعله يستقر لحظة فى مكان، متعب العينين، تفسد سمرته صفرة قبيحة، شعره كأنه شعر ماعز خفيف، جذور شعر لحيته، تبدو حين ينمو شعرها قليلة، متنافرة، ينمو كل منها فى اتجاه. وشاب كان أنيقا للغاية بكرافته وبدلته وشعره المسبسب، يهوى القراءة فى علم النفس، وممارسة التحليل النفسى على كل من يصاحبه، فيوقعه فى اضطراب وبلبلة شديدين. كان واضحا أنه يعانى من كبت وبرانويا، ومصاب بذلك الجنون المعرفى الصاخب فى داخله، الهادئ على وجهه الوسيم. وشاب ثالث لم ينل حظا من التعليم، لكن الأستاذ علمه فى سنة ما القراءة والكتابة، وأغواه فحصل على الشهادة الابتدائية فى سنة، وعلى الثانوية العامة (نظام قديم) فى ثلاث سنوات، بدلا من خمس سنوات، والتحق بالقاهرة، بقدرة قادر وهو

الشديد المسغبة بكلية الحقوق، ثم بالكلية الحربية، وصار محققا رفيع المنصب بالقوات المسلحة. وشاب رابع سمنى الوجه، شهوانيه، أنيقًا أناقة واضحة، يرتدى دائمًا چاكيت كاروهات، وبنطلونًا سادة، أيا كان لونهما المتناسقين، لم يكن مغرما بالقراءة، وتحلو له صحبتنا عصر كل يوم، وقدر له، حين تخرج من كلية الزراعة، وعمل بسرس الليان، أن يحصل على منحة بالسويد، بفضل سهرات الحشيش مع الخبراء الخواجات، وأن ينال درجة الدكتوراه، وأن يعمل سفيرا متجولا فى قطاع الزراعة للأمم المتحدة، وكان هو الآخر من الصحبة التى تناوش القراءة أحيانا، ويعجب دائما لجدية الأستاذ، الذى يعرف الضحك، ويعرف الغضب، ولا يعرف الابتسام، والوجه البشوش، ويفتقد حسّ النكتة وبهارات الكلام. وشاب سادس من الصحبة أيضًا، أكثر قصرًا، وأقوى عضلا وبنية، من شقيقه ذى شعر الماعز، يقرأ لماما، ونراه أحيانًا، ويعطى كل حياته للمصارعة، وقدر له أن يصير بطلا فى وزنه، فيما بعد، على مستوى الجمهورية، وأن يتزوج من فتاة بنت بلد، طاردته بحبها، وحاصرته بجيرتها، حتى تزوجها، وفى الليلة الأولى، قص لها شعر رأسها بالموسى، وهى نائمة، وتأكد عندئذ أنه لا فرق بينها وبين الرجل، فجاءنا شاكيا فى الصباح من أنه تزوج من رجل، وظل فى عجب لأنها حملت فى تلك الليلة. وشاب سابع مجنون غراما بالزعيم مصطفى كامل الذى لم يره، ويحلم بإنشاء حزب اسمه حزب البعث، بعد أن يلتحق بكلية الحقوق، ويتخرج منها، فى عهد كان كل طلبة الحقوق فيه يعتقدون أنهم سيصبحون وزراء إثر تخرجهم، وكان حظه أسوأ الحظوظ، فقد صار محامياً تعيس الحظ (كتبت عنه قصة اللوحة). وشاب ثامن وأخير، من الصُحبة، التى تكن احتراما بالغا لمن قدر له أن يكون أستاذا لى، يؤثر شراء الكتب على استعارتها غالبا، ويواصل كتابته لقصص رومانسية، تنشرها له مجلة الرسالة، وتمنحه لقبا

يسبق اسمه: بقلم القصصى الشاب: «محمد أبو المعاطى النجا» وتحذف من قطار اسمه بقية هذا الاسم: «السيد أحمد سالم». وكانت عناوين قصصه، من مثل هذه العناوين: أحلام صغيرة، فوفو أو فيفى أو فوزية، حلم ليلة الزفاف. وبين هذه الصحبة كان الشاب ذو الشعر المعيزى، يحقق نفسه، مثل «أبو المعاطى» على صفحات الرسالة الزياتية بتصويب الأخطاء اللغوية التصريفية، التى يقع فيها كتابنا الأفاضل، عددا بعد عدد. ولم يكن بين هذه الشلة، القارئة، حقا أحد لم يعرف الطريق بعد إلى تحقيق ذاته، سواى، فقد كانت طفولتى لا تزال ممتدة ومرهقة ومضنية.

وحين نغادر المكتبة فى فترة المساء، لم نكن نعرف الطريق إلى بيوتنا، كان حى المختلط هادئا، وذلك الجزء من كورنيش النيل، نادر السابلة، فكنا نجلس على سور الكورنيش، وبعضنا يقف لمواجهة الجالسين، وتدور بيننا مناقشات صاخبة ساخنة حول السياسة، والإقطاع، وأحداث الفلاحين، نادرا ما كانت هذه المناقشات تدور حول: الله، ومحمد، والدين، والثقافة، والكتابة، والكاتبين، وفى تلك المناقشات النادرة كان عددنا أبدا محدودا، ومحصورا فى المجموعة القارئة من صحبة المكتبة، يقودها المايسترو والأستاذ، على طريقة محاورات أفلاطون، يطرح المشكلة، والأسئلة، ونروح معًا نبحث عن جواب، وهو وحده يفند كل أجوبتنا، بل ويصل بنا إلى درجة من طرح الاحتمالات فى الأجوبة، نجد معها أنفسنا عاجزين عن معرفة الصواب والحقيقة. كان عقله فلسفيا، على الطريقة اليونانية، وكان يؤكد لنا أنه ليست هناك حقيقة، وأن الحقيقة نسبية، ومتعددة، وليست حقيقة واحدة، وتتبع دائما عشرات المواقف وأشبار الأرض التى يقف عليها الناس.

وذات يوم، وكنت قد انتهيت لتوى، من قراءة كتاب «مذكرات لينين» فى المكتبة، دار الحوار صاخبا حول الماركسية والشيوعية. وبرهن لنا الأستاذ

فى ذلك اليـوم على أن الماركسـية ليـست فلسـفة، وأنهـا منهج من مناهج الاقتصاد، لاأكثر ولا أقل، فى مسار الحـضارة الغربية، وأن الشيوعية حلم لا سبيل له إلـى التحقيق، وأن الماركسـية فى النهاية هى رومانـسية، تلوى رقبـة الواقع، وتتعـجل تطوره، وأنها صارت دينا بهـذه الرومانسية، وأن العلم يتطور، ويتجـاوز المعارف العلمية التى اعتـمدت عليها الماركـسية فى رؤيتها للتاريخ، والتطور.

وفى يوم آخر التففنا حول الأسـتاذ، ورحنا نهاجم السراى، والملاك، والأحزاب، والفـساد السـياسى، وأكد لنا الأسـتاذ أننا مـقبلون حـقا على ثورة، والكارثة أن تحدث هذه الثورة على أيدى العسكر، فـتجهض الثورة، وتصبح انقـلابا فى نظام الحكم، يؤدى إلى الحكم شمولى سـافر، بدلا من الحكم الشمولى الملكى المقنع. وفوجئنا وأجـمنا، بضابط جيش عالى الرتبة فى زى الرتبة العسـكرية، يتقدم نحونا، ونكتشف أنه كـان منزويا بجانب شجـرة وراء سور الكورنيش، وأنه أنصت لكل مـا قلناه، ولم يزد على أن قال لنا:

- ما تقولونه خطير، لا تتحدثوا به فى الطريق.

وبدا لنا أنه سعيد بنا، وهو يمضى مبتعدا عنا.

وخلال هذه الفتـرة التى دامت من عمرى أربع سنوات، كنت أواصل قراءاتى المؤسّسة بتوجيه الأستاذ. الأستاذ؟

صائد الثعابين:

فى سنوات إقامـتى بالمنصورة، أزعم أننى، بفـضل الأسـتـاذ، قرأت الكثيرمن مراجع التراث، والعلوم الحديثة، وتعلمت على يديه، ودون قصد

دائما، كيف أفكرتفكيـرا منهجيا، وأنفذ إلى جـوهر الأمور، وأدرب عقلى على التذكر، والتركيز، وأغير منهـجى، فى التفكير المعرفى، حسب طبيعة كل علم ومجاله.

وفى تلك السنوات العـجيبـة، بفصـولها، تعرفت مـعرفـة عميـقة، وحقيقية، إلى الأستاذ فى حياته اليومية، وفى نشاطه العام.

كان آنذاك، فى العام الأول للقائى مـعه، طالبا بمدرسة الملك الكامل الثـانوية، يلبس لها بـدلة وحيـدة، وكرافـته، ويناوب تـغيـير قـميـصيـه الوحـيدين، ولا يفـارق رأسه طربوشــه، إلى أن يعـود إلى بيتـه الريفى، بأطراف المدينة، فى حى «عـزبة عـقل»، بيت طينى مكون من غـرفتـين، وصالة صـغيرة بيـن الغرفتـين، وكان يلفت نظرى حـذاؤه، اللامع دائما، والمصنوع لكى يعيش عشـرة أعوام على الأقل، وعلى قدميه أن تتـوقفا عن النمو طولا وعرضا وسـمكا. وكان يؤمن بأن للمدرسة احترامـها، ولحياته الخاصة، بل ونشاطه الذهنى حريته، التى لا يحدها قيد.

دعانى لقضاء يوم نزهة معه، فى أرض معشبة، حول مبنى لخزان مياه عند البحر الصغير، وجلسنا نأكل عيـشا ناشفا، وجبنا قريشا، وأعدادا من أعواد الجرجـير، ورءوسا من البصل، وكنا نتـحدث فيما لا أذكـره، وتغير مكاننا على الحشائش، بسـبب خرطوم يروى به بستانى الأرض الفسـيحة، طلبا لمكان جـاف جديد نجلس فـيه. ودهشت يومهـا وأنا أرى لأول مرة، كـيف يروى الجناينى الأرض بخـرطومه من الخـزان العـالى. كان يمـسك بطرف الخرطوم الجـلدى ويجذب منه أنفاسـا حتى تنحـدر منه المياه، عـبر طرفـه الأعلى، المدسـوس، فى قلب مـيـاه الخـزان، ويضع قـرب طرف الخرطوم حـجرا، ثم يتركـه يدفع بمياهه الباردة دون توقف. وفـجأة رأيت الأستاذ يقفز فـى الهواء، بالقرب منه، ويهبط بقدمين مفتـوحتين فوق عنق

ثعبان وذيـله، ويصيح صيحـة الفوز !ها. وينحنى ويمسك بذيل الثـعبان، ويرفعه فى الهـواء فجأة، وهو يبعد قدمـيه عنه فى اللحظة ذاتها، وينفض الثعبـان نفضتين لاغيـر فى الهواء، ثم يلقى به كشىء مهـمل ويروح جسد الثعبان الأملس ينتفض دون قـدرة على التلولب، ثم يسكن ميتا. وقال لى الأستاذ إنه قد فكك الثعبان بنفضه عـموده الفقرى، وأنه قد قتله لأنه ثعبان سام. ولعله ذكر لى اسما له، لا أذكره الآن.

منقذ الغرقى :

وعصر يوم جمـعة، وكانت المكتبة تغلق أبوابها فـى كل يوم جمعة، سئمت لعبة الطاولة، والشطرنج، والدومينو، بمقهى بشارع عباس، فذهبت إلى بيت الأستاذ أسأل عنه، فقالت لى أمه إنه يسـتحم فى البحر الصغير. كانت أمه فقيرة للغاية، مهضومة الجسد، ساكنة العينين الواسعتين، تثير فى القلب الحب والأسى، خاصة وأنها أم الأستاذ.

وجـدت الأستـاذ جالـسا على الشط، حـزينا، ومطرقـا، بين أولاد الحى، وثمة أصوات نسوية نائحة، وصارخـة، أصوات مفجوعة تبكى ولدا غـريقا مـسجى على الشط، وكـان الكل يتـوافد من الحى، لنجـدة الأهل المكلومين.

على البحر الصغير كـانت قنطرة، لها بوابة حديدية، تتحكم فى المياه المنحدرة من نهر النيل، وكانت تلك البوابة، فى ذلك اليوم نازلة إلى نصف ارتفاعـها، والمياه تتـدفق من تحتها، صـانعة فى البحـر الصغيـر، بالقرب اللصيق بالقـنطرة، دوامة ماء تدور حـول نفسهـا، وقد تجوف مـركزها فى حركة لولبيـة، وكان الأولاد يستحمون بالقرب مـنها، واقترب الولد الذى غرق فى سباحته من الدوامة، فجـرته إلى جوفها، ودارت به حول نفسها،

ثم ابتلعته إلى القاع دون أن يحدث صوتا واحدا للاستغاثة. ورآه الأستاذ، وذقنه فوق المياه، يختفى، فاندفع يسبح إلى الشاطئ غاضبا كعادته، وصعد إلى جسد القنطرة، وقفز فى جوف الدوامة غائصا بكل جسده، وخرج بعد هنيهة بعيدا عن الدوامة يجر الولد الغريق من وسطه إلى الشاطئ. وحمله من فخذيه وراح ينفضه مقلوبا، وخرج الماء من جوفه، لكن الولد كان قد مات من قبل فى جوف الدوامة.

وعند غروب يوم، صيفى على ما أذكر، والفيضان عال فى نهر النيل. خرجنا من المكتبة مسرعين على صيحات قريبة من المكتبة، ورأينا الناس متجمعين عند كوبرى طلخا الحديدى الذى تعبره القطارات. وعرفنا أن سيارة قد سقطت براكبيها فى النهر، وكان سائقها خارج السيارة يرتجف، كان أفنديا شيكا للغاية، ولم يكن يبكى، بدا فقط مذهولا.

وحاول الأستاذ أن ينزع ثوبه الذى على اللحم، ويغطس لإنقاذ الغرقى، لكن الناس أمسكوا به، ومنعوه.

وقال لى الأستاذ:

- هنا، قبل سنوات، غرقت اسمهان. كان صوتها لا يعوض.

الأستاذ:

كان الأستاذ لايزال طالبا بالصف الثالث الثانوى، ولكنه كان يسبق عمره وتعليمه معا، بذكائه وثقافته الموسوعية عامة، والفلسفية خاصة. كان ذا تفكير إغريقى حقيقى، وتلميذا أصيلا لأرسطو، وسقراط، وأفلاطون. واحدا من مدرسة أحمد لطفى السيد الذين لم يروه، ولم يسمع هو بهم يوما. ومع ذلك ظل عجبى شديدا من هذا الأستاذ الصغير، فقد كان

واحدا من كتــاب مجلة الرسالة الزياتية اللامعـين، وهو لايعلم مدى لمعانه فى ذلك الحين.

كـان يكتب مـقـالاته، ويقـرئهـا لى، ولأن خطـه لم يكن حـسنا، وعلامات ترقـيمه لجمله لم تكن دقـيقة تماما، فقـد كنت أقوم له، بحب، بتلك المهمة، وأنا أجـهد لأكتشف له خطأ املائيا أو لغـويا واحدا. وكانت كتـاباته، كمـا حاول أن يعلمنى، من تلك الكتـابات التى تكثف أفكارها، وتنفذ إلى الجوهر، وفـى بساطة ووضوح، دون إسراف فى الاستـشهادات والإحالات والاقتباسـات، نابذاً دائماً أكلشيهات التعبـير، مثل: ينبغى أن، ولعل كـذا، وفى الواقع، وفى الحـقيـقة، واضـعا أمـام عـينيه دائمـا كل الاحتمالات لأوجه القضية، وللأسئلة حولها والأجوبة.

فى تلك السنوات بـالمنصورة، كـان نشـاط الأسـتـاذ الفكرى، يدور متدرجا فى أربعة محاور: محـود التصويب لأخطاء الكاتبين، ومحور كتابة المقالات الفلسفية التى يبادر بها لطرح وجهة نظره، مثل مقالاته الثلاث عن «المستـقبليـة فى العلم والأدب والفن»، ومـحور تعليـمى، فى سلسلة من المقالات، يكتبهـا فى كل عام، شهرا بعد شهر، وأسبوعـا بعد أسبوع، فى مجلة الرسالة، ليـشرح فيها، ويلخص، ويعلق، ويضع الأسئلـة وأجوبتها لكتب الفلسفة، المقـررة على شعبة أدبى بالثانوية العـامة (البكالوريا)، مثل كتـابات عن ابن مسكويه. وكـان الزيات يبادر بنشـرها أولا بأول، ويكتب إليه رسائل يتعجله بها. وأعتقـد أن الأستاذ، بسبب هذا المقالات الشهرية، قد قدم خدمة تعليمية قصوى، راجت بها مجلة الرسالة، فى السنوات التى انحسر فـيها توزيع الرسالة، وتفـرق فيها كـتابها، بعد أن صـاروا أعلاما، ومـؤلفى كتب فكريـة أو إسلامـية، ثم مـحـور الكتابة الفـكرية الفلسفـة الإسلامية، وهو محور لم ينشر مقالاته قط، خوفا منها على حياته، ويأسا من إمكانيـة نشرها، حتـى فى ذلك الزمن الذى لم تكن قد حـدثت فيـها

بعد، وبرغم نشاط الإخوان المسلمين، تلك الردة الفكرية، ووصاية الكهنة من رجال الدين، وحماقات التنظيم السرى، ثم الجماعات الإسلامية. وكانت تلك المقالات فى الحقيقة، فصولا فى كتاب، عنوانه: «الإسلام تلاؤم مع الواقع»، وكانت فصولا سبق بها صديقنا: نصر أبوزيد، ومعتمدا فى الوقت نفسه على مرجعيه الأساسيين: الإمام السيوطى، والزركشى، ويزيد عليها فى اعتماده على أسباب النزول، وكتابته لفصل خاص بما لم يدون من القرآن الكريم، وأسباب عدم تدوينه، ويتفوق عليه بهذا التركيز الفلسفى، النفّاذ إلى الجوهر، دون إغراق فى الاقتباسات، والاستشهادات والإحالات المرجعية. ولقد قمت بتبييض هنا الكتاب، وكنت سعيدا به قارئا وناسخا. وللأسف لم يكن تصوير «الفوتوكوبيا» قد ظهر فى العالم بعد، فظل الكتاب نسخة وحيدة عند الأستاذ، إلى أن ودع الدنيا. ولقصة هذا الكتاب بقية.

الطريق إلى مصر :

سبقنى هذا الأستاذ الصغير، إلى القاهرة، ملتحقا بجامعتها، مع أخى الذى يصغرنى بخمسة أعوام فى ذلك الحين، لم تكن الثورة قد قامت قيامتها بعد فى القاهرة والإسكندرية، وكانت الجامعة بمصروفات، ينوء بها على ضآلتها كاهل الفقراء ومتوسطو الحال، وبينهم أبو الأستاذ الذى كان مجرّد عامل تليفونات، فى الخطوط الزراعية الممتدة بين المدينة ومراكزها وقراها. لكن الأستاذ نجح فى الالتحاق بالجامعة، وبالمجان، بل ونال مكافأة شهرية، ظل يحصل عليها طوال سنواته الدراسية الأربع، بقسم الفلسفة، بكلية الآداب، بجامعة القاهرة، وكانت لاتزال لهذا القسم سمعته، وهيبته، وأساتذته العلماء المستنيرون. وكان الفضل فى هذه

الامتيازات التى منحت للأستاذ، مشاركته فى مسابقة فلسفية لا أذكر موضوعها، كان المحكّم فى أبحاثها هو الأستاذ الدكتور: زكى نجيب محمود. وفاز الأستاذ بالتقدير الأول والممتاز عن بحثه، ولربما اكتشف الأستاذ الكبير عندئذ أن الأستاذ الصغير آنئذ، هو كاتب الرسالة المفكر، وأصابته الدهشة والحيرة، حتى أفاق فى لقائهما للمناقشة، وقبله فى جبينه، وعانقه.

فى تلك السنة، حدث حريق يوليو بالقاهرة، وتسامعنا به فى الدساكر والمدائن،وحدث السلب والنهب للمحال العامة. وصدق الأستاذ لأول وهلة أنها ثورة، فكاد أن يشارك فيها، لولا الروع والفزع الذى نزل بالمدينة التيه.

وكانت ثورة العسكر قد قامت قيامتها، ونحن لا نزال فى الصيف بالمنصورة، ننتظر نتيجة امتحاناتنا الأزهرية، وفرحنا بحدوثها فى عروس النيل فرحا لا يحده الوصف. قفزت من نافذة بيت صديق إلى الشارع، ورحت أقطع الطريق بقفزات المقص الأكروباتية على يدىّ، مقصا بعد مقص، إلى أن سقطت لاهثا من الفرح والتعب فى عرض الطريق، ورحت أصرخ صرخات لا معنى لها.

وأفلحت وأبو المعاطى فى اجتياز امتحانات الثانوية العامة الأزهرية. ووفدنا على القاهرة كقرويين مبهورين بمصر، وكان اسمها عندنا : مصر، فهى كل مصر، ولم نكن قد رأيناها من قبل. والتحق أبو المعاطى طالبا بكلية دار العلوم، ودخلت أنا كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر.

الكلب :

فى القاهرة كان الأستاذ يسكن فى شقة فى بيت بشارع الهرم، يطل على مزارع شاسعة، يهاجم بعوضها البيوت ليلا، وزرته عصر يوم،

وجلسنا بفرندة واسعة نرشف الشاى، وكانت أمامنا على الجانب الآخر، على حافة المزارع، فيلا أنيقة واسعة الشرفة، ورأينا فتاة سيدة جالسة تقرأ فى مجلة، وقد ارتدت بنطلونا أزرق، وبلوزة بيضاء، عارية الذراعين، وبجانبها كلب أبيض، صغير للغاية، طويل اللسان. وفوجئت بالأستاذ يمصمص بشفتيه للكلب، فى حركة قبلات متوالية، ودهشت إذ رأيت الكلب يستجيب للدعوة، ويقبل نحونا عاديا صاعدا درج فرندة الأستاذ، وسبق الأستاذ الكلب إلى سريره. وارتمى عليه فاتحا ساقيه للكلب، وفى الحال رأيت الكلب يدخل بين ساقى الأستاذ شارعا لسانه. دهشت وراح الأستاذ يضحك، وكانت الفتاة السيدة تنادى: ماكس، ماكس. وحمل الأستاذ الكلب إلى الشرفة، وأنزله، فاستجاب لنداء سيدته. وسألت الأستاذ فى دهشة: لماذا فعلت ذلك، فقال لى: الكلب يؤدى مهمة لسيدته التى لا يؤديها رجلها. وحملت الفتاة السيدة الكلب، وهى تنحنى عليه معاتبة بما لم نسمعه، ودخلت من باب الشرفة، وجاء زوجها، وجلس غاضبا فى كرسى السيدة الهزاز صامتا، ينظر نحونا بغيظ، وقال لى الأستاذ: لو خيرت هذه المرأة بين الكلب وزوجها، لاختارت الكلب.

ولدان صغيران:

غادر أخى سكناه مع الأستاذ، وسكنت وإياه مع أبى المعاطى بدور أرضى فى بيت يطل على حديقة صغيرة بحى الروضة، كان طراز البيت يرجع إلى القرن التاسع عشر، عالى الجدران، طويل النوافذ والأبواب، وكان يطل على شارع الروضة قريبا من الميدان، عند مفرق الطرق. وكان يمر بالطريق ترام يقبل قادما من كوبرى عباس إلى كوبرى الملك الصالح، ويقبل عائدا من هذا إلى ذاك، ولا ينقطع صريره وضجيجه إلا ساعات قليلة قبل السادسة كل صباح، واعتدت مع الوقت أن أنام على صوته، واعتدت

أيضًا أن أعيش بعيدا عن الأستاذ، فهو مشغول بحياته، وبدراسته بكلية الآداب، وأنا ومن معى لا نقل انشغالا عنه، فى مدينة التيه، طوال أربع سنوات. وبدل كلانا فى مدينة التيه أصدقاء وأحبابا دون قصد. وكنت أتسامع من بعيد بأخبار الأستاذ وحيويته، وجدله، ولمعانه، بآداب القاهرة. ومعه بالكلية نفسها، كان: رجاء النقاش، وعبدالمحسن بدر، وصبحى شفيق، ووحيد النقاش، وقدر لهم أن يكونوا بين ألمع الأساتذة فى مدينة التيه، يعيشون ضياع مدينة التيه، ولا يطيقون بعدا عنها، عن خوفها، وقلقها، توترها، ومدينتها وسوقيتها، وغناها وفقرها، مثلنا جميعا، نحن، أبناء القرى والمدن الصغيرة، القادمين إليها من الشمال والجنوب.

حدثنى القصصى الشاب أبو المعاطى أبو النجا أنه ذهب هو والأستاذ لزيارة أحمد حسن الزيات، فى مكتبه بمقر مجلة الرسالة، فاستقبلهما واقفا، وكان فى اجتماع مع صفوة من كتاب مصر ومفكريها، وقدما أنفسهما للزيات، فصعق حين سمع الاسمين، ورأى الشخصين، وانحطّ جالسا شاعرا بخيبة الأمل. وهو يقول لهما: ظننت أنكما شيخين «مطمطمين». فضحك على الخفيف على ما رواه أبو المعاطى لى، وقال برضا: زرعنا زرعا وأينع، وغرسنا غرسا وأثمر. ماذا فى ذلك يا أحمد؟ ولا أذكر بقية الرواية، لكننى أعرف أن الزيات كفّ عن النشر لهما، هما الولدان، طالبا الجامعة، إلى أن احتجبت الرسالة عن الصدور، ظاهريا لعجزها فى مواجهة الضرائب، وباطنيا لأنها لا تعبر عن إرادة هذا الانقلاب الثورى، فيما حكاه النمامون من أهل الصحافة والثقافة.

دعوة إلى العشاء :

كنا نلتقى كمجموعة من الشباب المبدع الواعد، فى بيت المغترب الأبدى، بشارع التحرير بالدقى، وأحيانا نادرة كان معنا الأستاذ، نلخص

لبعـضنا آخر مـا قرأناه، وينصح أحـدنا الأخرين، بمشاهدة فـيلم هو عنده أفضل ما شـاهده مؤخرا، أو بقراءة كتـاب جيد صدر حـديثا، وربما بقراءة مـقال بعـينه، أو قصـيدة أو قـصة، لـسين من المبدعـين. ونقرأ قـصص بعضناالبعض، ونعلق عليها، استهجـانا أو استحسانا أو اختلافا فى الرأى، مصحـوبا بالشجار والشتائم الـعالية. ولا أظن أن الأستاذ قـد شهد ندوتنا الخاصة فى بيت المغترب الأبدى، التى كنا نعقدها كل خميس، ونحتشد لها طوال أيام الأسبوع، بجنيـهات ندخرها، وقنانى نحملهـا، وكتب نقرؤها، وعمل نكتبه، ولهفة عميقة إلى هذا اللقاء.

وكان بين أفراد مجـموعتنا، عمدة أدباء مدينة التيـه وقارئها الذواقة، وأقلهم ممارسـة للإبداع: إبراهيم منصـور، بضـحكته العـاليـة، وتهريجـه المتواصل الخـفيف الظل، وآرائه المفاجـئة النفاذة، وثقـافته الواسعـة، وكان عـارفا بالإنجليـزية إلى حـدّ طيب، بقدر فـقـره الواضح، آنذاك فى الصلة بكتب التراث، ولقد كانت آراؤه النقـدية، وفى قصصى القليلة آنذاك، أهم عندى وأصدق، من كل آراء الآخرين.

دعانا إبراهيم هذا إلى عشـاء ببيته بالمعادى، وكان معنا، فـيما أذكر، محيى الدين مـحمد، حامل أكـبر قنينة، وعبدالمحســن طه بدر، والمغترب الأبدى غالب هلسا، و. . الأستاذ. وفوجئت ببيت إبراهيم الدائم الاقتراض منا. كان فيلا من طابقـين، وله حديقة، وكان، مفروشا بالسـجاد، ومليئا بكتب أبيه، وعـصيّه التيِ قدّرت أنه كـان يؤدب عليها إبراهيم أخـيب بنيه وبناته، فى رأيه على الأقل. واكتـشفت أن إبراهيم مسلم وليس بمسـيحى، رأن أباه كان مـديرا للتربية والتـعليم، وجلسنا حينا فى قـاعة الاستقـبال، وبالشرفة الدائرية حـينا. وحين دعانا إبراهيم للعشاء رأينا منضـدة بيضاوية بيضاء، تحيط بها مقاعد سفرة بيضاء، وقد وضعت فوقها أطباق وسرافيس من الصينى الفاخر، الذى لا عهـد لنابه من قبل، وتناثرت قنانينا تتوسطها

قنينة محيى الدين محمد. ولم يكن الأستاذ قد لحق بنا بعد. وحين حاولنا أن نمد أيدينا إلى الطعـام، الفائح الرائحـة، الساخن الشـواء، رأينا إبراهيم يمنعنا بطرف عصا، قائلا لنا: كل واحد يدفع أولا جنيها ونصفا، ثمن هذه الأكلة، ولم نجد مفرا أمام روائح الطعـام من الدفع، والاقتراض من بعضنا البعض للدفع، أو التعـهد بالدفع تعهدا شفـويا لحسن الحظ، وبدأنا نشرب ونأكل، وجاء الأستاذ.

صاح إذ رآنا منتـشين بالطعام والشـراب: يا أولاد الإيه، سبقـتونى. وملأنا له كوبا، فـجرعه دفعة واحدة ليـأخذ بحقه مثلنا فيـما قال، وانكب على الطعـام بشهـية، ويخـيل لى أن داعينا قـد نسى أن يطلب منه جنيـها ونصف.

وكنا جالسين لا نزال نأكل على مهل، ونشرب على مهل، حين رأينا الأستاذ، يسأل عن الحمـام، وبان من وجهه أنه قد شعر بالغثيـان، فصحبه الداعى إليه وعاد يصـرخ بنا: الحقوا صاحبكم. أسرعت إليـه، فوجدته قد أتم قيئـه، ودهشت حين رأيت الحوض مملوءا بريش اللحم، التى أخـرجها الأستاذ من جـوفه، والتى ابتلعها دون أن يدرى، ولازلت حائرا فى كيـفية بلعه لهـا دون أن نلحظ ذلك، وكيـفية إخـراجه إياها من بطنه، عـبر قناه الهـضم. ولاحظت أن حمـام ابراهيم منصـور كان لبـنى اللون: البانيـو، والبلاط، والحوض ذى القاعدة والبيديه، وقاعدة المرحاض، والجدران، مثل حمامات البرجوازية فى أيامنا الراهنة. وبدا لى هذا الحمام آنذاك مستورداً، فلا عهـد لمصر آنئذ بمثله، إلا ربما فى البيوت إياها، وأخـبرنى من لا أذكر اسمه، بحمام آخر فى الفيلا بمبى اللون، وآرانى إياه. وأذكر أننى منذ ذلك الحين. قـد بتّ أتردد كثيـرا فى اقراض إبراهيم منصـور، حين ينزل وسط البلد، طوال خمس وثلاثين سنة.

لصالح الأمن العام :

سبقنا الأستاذ بالتخرج من قسم الفلسفة بآداب القاهرة، وكان تقديره بامتياز مع درجة الشرف، وأيقنا جميعا أنه سيعين معيدًا بالقسم، وأنه جدير بهذا الشرف، لكننا فوجئنا بقسمه يعلن أنه ليس بحاجة إلى معيدين فى هذا العام، وكان واضحا ذعر أساتذة القسم من وجود الأستاذ فى «اصطاف» القسم، فهو عندهم، فيما جزمنا منه، شمس تكسف كل الأقمار والنجوم، ولم يكن بوسع أحد أن يلغى قرار القسم، لا زكى نجيب محمود، ولا سواه، فسعى الأستاذ كى يعمل مدرسا بمدارس التربية والتعليم، وعين مدرسا للفلسفة واللغة الإنجليزية بمدرسة شبرا، لكنه سرعان ما قبض عليه لصالح الأمن العام، وأوقف راتبه، وقيل لنا إنه كان متهما بأنه من الإخوان المسلمين، وكانت تهمته مضحكة، ولربما أخذ على الأستاذ أنه قد تبرع بخمسة قروش للإخوان، أو شوهد يجادل شباب الجامعة الشيوعيين ويقارعهم الحجة بالحجة، مثلما يجادل سواهم من الإخوان، متشحا برداء سقراط، فى حرم الجامعة، أو خارجها. وكان واحدا من المشائين.

الأول دائما :

وحين انتهت سنوات اعتقال الأستاذ، ودون محاكمة. ووجد الأستاذ نفسه فى مدينة التيه بلا عمل، ولم تمض شهور حتى استعان به عثمان نجاتى، للعمل معه فى إعداد وجمع وتحليل استبيان، عمم على عينات من الطلاب والأساتذة بمدارس وزارة التربية، ولصالح الجامعة الأمريكية. وظل الأستاذ فى هذا العمل، قرابة عامين على ما أذكر، دون أن يقدر الأمن العام، على منعه من هذا العمل، وربما لعدم علمه به، وحين انتهى العمل بمشروع هذا الاستبيان، وجد الأستاذ نفسه مرة أخرى، ضائعاً بمدينة التيه، وراح يبحث عن عمل.

وأعلن المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، عن حاجته إلى باحثين. وتقدم الأستاذ ليكون باحثا بين الباحثين، ودرس، خلال شهر واحد، كل المواد التى سيختبر بها، واجتاز اختبار المواد وكان ترتيبه الأول، فعينه المركز باحثا، وتسلم مرتبه عن شهر واحد عمله، ثم فوجئ بفصله مرة أخرى لصالح الأمن العام. ووجد الأستاذ نفسه مرة أخرى بالطريق فى مدينة التيه، فى ظل الثورة المباركة، زمنا لا أذكر تقديره حتى الآن.

وأعلنت الجامعة العربية عن حاجتها للمحقين ثقافيين يعملون بإحدى منظماتها، وتقدم الأستاذ لهذه الوظيفة، واستعد لها بقراءة مراجع بعينها، ودخل اختباراتها التحريرية، ولقاءاتها الشفوية، ومع أبناء سفراء، ووزراء، من العالم العربى، وفاز الأستاذ بالشرف الأول أيضا فى الاختيار، وتسلم عمله بالفعل، بمقر الجامعة، واشترى لنفسه بدلة أنيقة، جديرة بالمنصب، والراتب، وتسلم بالفعل راتبه عن شهر، لكنه فوجئ بقرار فصله، ومرة أخرى لصالح الأمن العام.

وعاد الأستاذ عاطلا بلا عمل، فى مدينة التيه، متعففا، لايقترض من أحد، ولا يطلب عون أحد، ولا نعرف من أين كان ينفق، ولا كيف كان يحيا، يعيش فى شقة متواضعة فقيرة الأثاث إلا من الكتب، بشقة بائسة، بأحد دروب شبرا.

محرر مكتب :

ضججنا من الثورة وأفاعيلها، والأمن العام وأحابيله، وكان عبدالمحسن طه بدر قد رضى الله عنه، وحصل على الماجستير والدكتوراه، وهو مدرس بمدرسة فى مدينة من مدن القناة، والتحق مدرسا بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة، واهتز عبدالمحسن لمحنة الأستاذ، فسعى إلى زميل له

بالجامعة، كان شقيقا لضابط كبير المقام بالقوات المسلحة، بل أكبر ضباطها آنذاك على الإطلاق، ونجح هذا الزميل فى إعادة الأستاذ إلى عمله الأول، كمدرس بمدرسة محمد فريد الثانوية بشبرا، ولم يلاحقه الأمن العام فى هذه المرة، وتركه فى عمله بصورة مستمرة . ولضعف الراتب، عن ملاحقة موجة الغلاء المتصاعد، قبل الأستاذ أن يعمل محرر مكتب بمجلة الكاتب، ذات الفكر السياسى، مع أحمد عباس صالح، وجلال السيد، وسعد عبدالوهاب، وكانت هذه المجلة مشمولة برعاية كمال رفعت، أحد ضباط الصف الثانى، بالثورة المباركة.

وفى هذه المجلة، دخل الأستاذ، ومعه جلال السيد، فى معركة جدلية خاصة، مع وزارة الثقافة، ووزيرها، وكتبا مقالات ساخنة، ومقنعة، حول سياسة هذه الوزارة، ووزيرها، من تلك المقالات التى تصبح تاريخا ووثيقة، وينتهى دورها بانتهاء زمنها، وهو دور لم يكن من شيم الأستاذ، ولم يكن له مفر، كمحرر مكتب، من القيام به، مساهمة فى النشاط الثقافى العام، المتغير الألوان، والدوافع والأساليب، حسب رغبات النظام، فى إثارة الرأى والرأى الآخر. وأحسب أن الأستاذ بثقافته الموسوعية عامة، والتراثية خاصة، كان وراء كتاب «اليسار فى الإسلام» لعباس صالح.

لقاءات فى مدينة التيه :

زرت الأستاذ بمكتبه بمقر مجلة الكاتب بشارع حسين حجازى، القريب جداً من مصلحة الضرائب، ومجلس الشعب، ومجلس الوزراء، كان الوقت ظهرا، ودعانى الأستاذ للغداء معه، وكان غداء متواضعا: جبن، وخبز جاف منفوخ، وأعواد من الجرجير، ثم دعانى إلى شراب

معه، فذهبنا إلى مقهى ريش، وجلسنا بالداخل، وطلب الأستاذ زجاجة واحدة من الجعة، واقتسمناها فى كوبين، وحين أتينا على الكوبين، كان الأستاذ قد انتشى، فلم تكن له قدرة على التحمل، وصاح بى فى رضا: تمام. فصحت على أثره، وقد أدركت أن دعوته قد انتهت: يا ملِك. هات لنا زجاجتين.

ودعانى الأستاذ مرة أخرى على غداء ببيته، فى أقصى مدينة نصر، وتعبت حتى وصلت إلى بيته. وكان قد تزوج، ولم يكن قد أنجب بعد، من فتاة خريجة كلية التجارة فيما أذكر. كان طعام الغداء على تواضعه طيبا: أرز، وخضار، ومرق، ولحم. وانفردنا بغرفة مكتبه، ووقع يدى على كتابه: الإسلام تلاؤم مع الواقع، ودعوته إلى نشره، فقال لى بذعر: أجننت، سأشنق، وأحرق بميدان التحرير. وحتى الآن لا أرى بهذا الكتاب ما يستحق المراقبة، أو المنع، فضلا عن الشنق أو الحرق. فقد كان كتابا مبكرا من كتب التنوير النفاذة، لا أكثر ولا أقل.

وقرب الغروب، وقد حان موعد انصرافى من بيت الأستاذ، شاهدت الأستاذ وقد قرر نزول وسط البلد معى، يتوسل إلى زوجته، مقبِّلا، ومراضيا، وصابرا، لكى تعطيه مصروفه، فأعطته خمس سجائر، وعشرة قروش. وشعرت بحزن شديد من أجل الأستاذ، وقررت فى ذلك اليوم أن أحتفى به على طريقتى لكى أسعده، وبدأت برد أربعة جنيهات كانت له عندى منذ سنين مضت.

لا تقل ذلك لأحد:

كنت أعمل آنذاك مدرسا بدار المعلمين بالدقى، وكانت مكتبتها، كعادتى، هى مجلسى فى فترات الفراغ بالمدرسة، وكانت هذه المكتبة لاتزال عامرة على تواضعها بالكتب التى زودت بها قبل الثورة، والكتب التى

أرسلت إليها من قسم المكتبات بوزارة التربية قبل الثورة، وكانت فى العادة أقل عددا من الكتب التى كانت ترسل إلى مكتبات المدارس، من هذا القسم، قبل الثورة، ولكنها كانت، على أى حال، أفضل حالا من كفّ هذا القسم كلية عن إرسال الكتب إلى مكتبات المدارس، وفى وقت كان يصدر فيه بمصر كتاب فى كل ست دقائق.

فى هذه المكتبة، وقعت عينى على كتاب ضخم، بدولاب الدوريات، عن فن المكتبات، وعلى غلافه كان اسم مؤلفيه أحدهما مفتش عام بقسم المكتبات بوزارة التربية، والآخر هو اسم الأستاذ، مع الاستغناء عن لقبه بهذا الاسم. أدركت أنه هو، وتذكرت أن هذا المفتش قد أعجب به، فسحبه للعمل معه بديوان الوزارة، وأن الأستاذ هو المؤلف الحقيقى للكتاب، فهو خبير أيضا بالتصنيف العشرى لجون ديوى، الذى تسير مكتبات الوزارة على نظامه المكتبى. وحين التقيت بالأستاذ حدثته عن اكتشافى لكتابه، فهمس لى محذرا: لاتقل ذلك لأحد، فليس هذا الكتاب جديرا بى. ولم يكن قد نشر له أى كتاب آخر.

الرحيل غربا :

فوجئت مثل سواى، من أهل الثقافة والأدب فى مصر، بهجرة الأستاذ مع زوجته للعمل بليبيا، ولأن هناك ثورة أخرى، فقد أيقنت أن ضرورات العيش، وإنجابه لأولاده، هى التى دفعته إلى العمل بليبيا، فى نظام شمولى آخر، وعلى أرض غير أرض وطنه وأهله وناسه، وأيقنت أنه هناك، وحتى لا يلاحق، أو يطرد، أو يحبس، سيحدث تعديلا فى اسمه ويستخفى قدر استطاعته عن الوسط الصحفى، والثقافى بطرابلس، وسواها من مدائن ليبيا. وما أدهشنى، طوال السنين التالية، هو أنه كان يأتى إلى

القاهرة ويلازم بيته ولا يغادره إلا لزيارات بعينها، إحداها، فيما أعلم، كانت لبيت عبدالمحسن طه بدر، كلما نزل إلى القاهرة. وأدهشنى أيضًا، أن أحدا بليبيا من المثقفين، الذين يقدمون إلى القاهرة، لا يعرف عنه شيئا، ولم يسمع به فى ليبيا، وأدهشنى أن سنوات إعارته قد انتهت، ولكنه قطع عمله بمصر، وفصل منه، وظل يعمل بليبيا، وكنت أتمزق، فى داخلى، حيرة، وقلقا، وحزنا، من أجل الأستاذ. وبدأت أفكر أن علىّ أن أقتنع بأنه كف عن أنه يكون أستاذا، منذ وُئد حلمه بالعمل بالجامعة، بين أحفاد أرسطو، وسقراط، وأفلاطون، وأفلوطين، وابن سينا، والكندى، والفارابى، وابن رشد.

أنت حمار سياسة :

دعيت مع أصدقاء لامعين مع أخى، للعشاء، عند أبى المعاطى فى بيته بالمعادى، وكان أبو المعاطى حريصا على هذه الدعوة، كلما عاد إلى القاهرة فى إجازة الصيف قادما من الكويت، حيث كان يعمل طوال الأعوام الأخيرة بمجلة العربى.

وجاء الأستاذ، واحتفينا به، لكننى لاحظت أنه قد صارت بينه وبين الجميع فجوة ما، عدا عبدالمحسن. وجرنا المجلس إلى الحديث عن ليبيا، وأذكر أننى قد قلت رأيا خاصا فى عقيد ثورة ليبيا، ودهشت إذ ثار الأستاذ قائلا لى أنت حمار سياسة. ضحكت، ولم أغضب، فربما كان بداخله، علىّ، عتاب ما. وقلت له وسط الوجوه: مقبوله يا أستاذ. واتفقت معه، وقد أحسّ بالحرج الذى ران على المجلس، على لقاء مع غدا، بمكان ما، فى ساعة ما، كى نتم حوارنا الخاص، ويسمع منى، وأسمع منه. ولم يأت الأستاذ، ولم يحدث أن التقيت به طيلة سنوات عدة، إلى أن جاءنى خبر

وفاته بليبيا، وبعد عام من وفاته، ولم يكن أحد يعلم عنها شيئا طوال ذلك العام.

والمثوى بليبيا :

رحل الأستاذ، مودعا الدنيا، فى ليبيا، غريبا، وفى صمت، وبمرض لم يتح لنا أن نعلمه، وربما بدون مرض، رحل لأنه «طق»، وانتهى الأمر معه، لكن الخبر بدا لى شائعة لا تصدق، مع أن الموت حق ومحتوم، على كل حى، والفناء مكتوب على كل موجود، حيا أو غير حى، فغامرت بكتابة كلمة نشرها لى جمال الغيطانى، بصفحة الأدب، عن شائعة هذه الوفاة.

فى اليوم التالى لنشر الخبر، فوجئت بأخت شقيقة للأستاذ، أعرفها منذ صغرها، تتصل بى باكية، وقد حصلت على رقم تليفونى من الأخبار، وأكدت لى الخبر، وذكرت لى أن نشرى لخبر وفاته، قد وصل الآن إلى أبيه ولابد، وأنه يقيم لا يزال بعزبة عقل بالمنصورة، وأنها ستضطر هى وزوجها إلى السفر إلى المنصورة لمواساة الأب، وأنها وزوجها وزوجة الأستاذ وأبناؤه قد تكتموا الخبر عن أبيه، لأنه كان ابنه الوحيد، وأنها ستعاود الاتصال بى، عندما تعود من المنصورة. وقدرت أنها كانت ترسل إلى أبيه هى وزوجها نقوداً شهرية زاعمين أنها من الأستاذ الحىّ، المشغول بعمله عن الكتابة إليه.

وحدثتنى حين عادت، أن رئيسة الأستاذ فى عمله قد اتصلت بزوجته فى القاهرة، وأخبرتها بوفاة الأستاذ، وسألتها عما إذا كانت تريد إرسال جثمانه إلى مصر ليدفن بها. فطلبت منها دفنه بليبيا، وأخبرتها أنها قادمة إلى ليبيا لتسوية الأمور، وذكرت لى أخت الأستاذ أمورا أخرى، كان

أخطرها أن الأستاذ ظل بعيدا عن أسرته بالقاهرة سنوات عديدة، تاركا بها زوجته وأولاده.

تراث الأستاذ :

طوال أسابيع، واصل صديقى العزيز جلال السيد الاتصال بزوجة الأستاذ، لنحصل منها على أوراق الأستاذ، وكتبه، التى لم تنشر بعد، والتى نشرت فى مجلات، لإصدارها مكتملة فى مجلد واحد أو أكثر، وعد بنشره صديقنا سمير سرحان بهيئة الكتاب، وكان له صديقا. لكن المحاولة فشلت، وكانت الحجة، ليست هى أن هذه الأوراق والكتب غير موجودة تحت يدها، وإنما كانت الحجة هى أن هذه الأوراق والكتب. بها ما لا ترضى هى عنه، وأنها لكى تنشرها يجب عليها أن تراجعها، وتراقبها، ففيها ما لا ترضى هى عنه، وهو الذى كان إليه المرجع حتى من أساتذة كبار، وباحثين أفاضل، بالجامعة، وخارج الجامعة، فى مصادر ومراجع دراساتهم، حتى حين كان مشردا بلا عمل، فى مدينة التيه.

كائن وحيد وفريد

فى باريس، فى اليوم الأخير من شهر أكتوبر، ودع الدنيا والأهل والأصدقاء، الأديب الشاب الصديق «وحيد النقاش». مات فى عامه الرابع والثلاثين. اغتاله داء كامن فى الجسد، طالما قضى ويقضى على الآلاف من أبناء مصر. فكانت مأساته مع الحياة، فى سنواته الأخيرة، مأساة الملايين من أبناء القرية المصرية، الذين يقعون فريسة هذا المرض المتوطن اللعين: البلهارسيا. يحملونها معهم أينما رحلوا، أو أقاموا، تهددهم بالعمر القصير، والحياة المعذبة. تفجعهم، وتفجع قلب مصر عليهم، ولما يحققوا بعد وجودهم، ولما يرتووا من ا لدنيا. تسلبهم الوجود والحلم معاً.

فى باريس، مات «وحيد النقاش»، وهو يوشك أن يقدم رسالته، لنيل درجة الدكتوراه من جامعة السوربون، عن المسرح المصرى، مات وهو فى عامه الرابع بباريس، يغنم لنفسه ولنا، خبرة حياة، وروح عصر، وثقافة جيل. لم ينقطع خلال هذه الأعوام عن المعاناة، والكدح من أجل العيش، وعن الدراسة من أجل الغد، وعن الكتابة من أجل الوطن، خارج مجال دراسته فى صحف باريس، ومجلاتها، وإذاعتها، وفى صحف وطنه العربى ومجلاته. لقد حمل وحيد وطنه معه، وبه عاش، وله كتب. حمله نفسا، كما حمله جسداً. وجاء وداعه المفاجئ لنا، فى إحدى مستشفيات

باريس، صرخة أسى، صيحة قلب محاصر بالأدواء المقدورة، معبرا عن مأساة إنسان مصر، ومأساة جيل من المثقفين والكتاب، فى كنانة الله فى أرضه!!

فى قرية من قرى مصر، ولد «وحيد النقاش». أسرته كلها فريدة ومتوحدة، تحمل ميسم النبوغ المصرى الأصيل، الذى قلما يجتمع بين سائر الإخوة والأخوات، فى أسرة مصرية واحدة، وكانت أعصابه أكثرها إرهافا، وحساسيته أكثرها رقة، وشفافية، وسرعة استجابة. موهوبا كان وحيد، وموهبته كانت، قبل فنه، فى غنى قلبه، وخصوبة روحه، حيال الحياة، والأحداث، والناس: الأهل والزملاء، والأصدقاء. من هذه الموهبة كان أدبه، وكانت كتابته، كان القلم. والورق، والمداد. كانت قصصه المؤلفة، وتعليقاته النقدية المركزة، والساحرة، فى المسرح، فى القصة، فى شئون الحياة الأدبية الأخرى، فى وطنه العربى الأم: مصر، وفى وطنه الثقافى الحلم: باريس. وكانت اختياراته المترجمة من روائع المسرح العالمى، وكان سلوكه وحركته فى الحياة، وبين الناس: أهلا، وزملاء، وأصدقاء. وكانت سرعة ألفة الناس له، قابليتهم معه، أكثر من سواه، أن يكونوا له أصدقاء، أن يتركهم، بعد لقاءات قليلة، بما لايتجاوز لقاءين، وقد صاروا له أصدقاء، حتى ولو لم تتصل بينه وبينهم علاقات الناس، ولقاءات الأيام. لقد كان وحيد طاقة الحياة، وينبوعا دافقا بالحب الدافئ، والبراءة المفتوحة القلب، للحياة، وللناس، والفضول الذكى الحساس، للمعرفة والاكتشاف.

وبقدر غنى قلبه، وخصوبة روحه، ورهافة إحساسه ومشاعره، وشفافية نفسه وحدة ذكائه، وتواضع خلقه، ويقظة أعصابه، كانت رقة جسده ورهافته، أمام أمراض العصر المستوطنة، التى تصيب منا النفس، أمام أمراض مصر العريقة، التى تحاصر منا الجسد. فسقط وحيد صريع

الداء، الذى سقطت به، من قبل، أمه هو، والذى تتساقط فيه معنا، فى كل يوم، أمنا مصر، أهلنا فى مصر، نحن فى مصر، فى النصف الثانى من القرن ا لعشرين!!

من القسم الفرنسى، بكلية الآداب، جامعة القاهرة، تخرج «وحيد»، ومارس من أجل العيش، الصحافة إلى جانب الأدب. عمل بمركز الفنون الشعبية فى القاهرة، ثم محررا بصحيفة الأهرام، فى قسمه الأدبى، ثم دارسا للحياة، وللفكر، فى باريس. عشر سنوات أو تزيد، عاشها وحيد بالعرض بعد سنواته بالجامعة، ولم يستطع أن يعيشها بالطول، أن يعيشها هى نفسها، بهذا الطول المفروض أن يكون لكل حى، فقد قضى أكثر هذه السنوات، يناوشه المرض، ويحاول هو الصمود فى وجهه، والمقاومة له، هاربا إلى روحه، وحلمه، إلى عالم التحقق الندى الرطب. قضاها هذه السنوات، وحيدا كاسمه، كاسمه تماما، مع المرض الكامن، المناوش، المراوغ، فراراً من نهاية تأتى، قبل أن يتحقق الحلم، قبل أن يمنح وجوده تبريره العظيم، الباقى من بعده، الذى عاش له، وربما عاش به، هذه السنوات الأخيرة القليلة، من عمره.

هكذا كان يفكر وحيد، أو هكذا أراه الآن. لشدة شعوره بذلك، وإحساسه به، ومعانقته له، ببعد الحلم، بأن عمله الكبير لم ينجز بعد، بل لم يبلغ أعتابه البعيدة المنال. صار الكل من حوله يحس بإحساسه، يفكر بما يفكر به، يتقبله على أنه الواقع والحقيقة. وغفلوا، كما غفل هو، عن قيمة ما يعمله، عن الشوط الذى قطعه إنتاجا، وثقافة، فى مصر، ثم فى باريس، على صفحات المجلات والصحف، بوطنه الأم المقدور، ثم بوطنه الحلم والرؤية، صار الكل كما صار هو، بل كما أراد هو، لشدة طموحه، وغنى روحه، وسمو وعوده المقبلة، صار الكل، كما صار هو.. ينتظر.. ينتظر. ما الذى كان ينتظره هو؟ وما الذى كنا ننتظره نحن، وعمله أمام عينيه، وبين أيدينا؟!

لثقته بنفسه، فى الغد لا فى الحاضر، وربما لتواثب روحه المحدقة أبدا فى الغد. . لثقتنا به، ويقيننا من موهبته ومقدرته على العطاء التى لا تحد، أهمل هو نفسه، فوقع فريسة الرضا، ووقعنا معه فريسة للإهمال، إهمال أن نناقش عمله، أن نراه، وأن نجلس إليه، وأن نتحدث معه. ومن العجيب أنه ظل قانعا لايحتج. يعانى من جسده، ومن نفسه، ومن الصمت الغامر من حوله، صمت له رنين وطنين، ولايشكو. يتألم ولاينطق، يتأمل ولايئن. يقنع ولايرضى. يظل وحيداً. يعمل وحيداً. يعيش وحيدا. يظل ينتج فى صمت، ذلك الإنتاج. . فى صمت يسعى إلى حلمه وئيدا، وسط كل المثبطات، بصبر غير بشرى، صبر النحال والنمال. يجهد وسط سعيه للتحقق، لتحقيق الوعود المرتجاة منه، لنفسه، وللآخرين. ليعيش حبه للحياة، ومعانقته لها، ناسا، ووطنه. حبه للمرأة رمز الحياة. حبه للأبناء رمز امتدادها وامتداده. ليعيش حلمه الوسيلة: باريس، وحلمه القيمة: الإنتاج الأدبى الكبير. ليعيش بالعمل موظفا وصحفيا. ليكتب فى الوقت نفسه ما يريده، وما يريده وحده، قانعا بما يمنحه له العمل، والعمل وحده، بالقليل الذى يمنحه له عمله، كموظف وصحفى، وكاتب أديب. فأبدا لم يُستدرج وحيد إلى أن يكتب غير ما يريده، لم تستدرجه إلى ذلك صحيفة، أو إذاعة أو تليفزيون، كما استدرجت الكثيرين من أبناء جيله، وفريقه، حتى من أجل توفير لقمة العيش الهنية، حتى من أجل تحقيق رفاهية صغيرة، عابرة، لبيته، وولده، حتى بأهون صور الاستدراج، حين يكتب مايريده، بمستوى لايرضاه هو لنفسه، ولانرضاه نحن لأحد.

قسا وحيد على نفسه، ليعيش قيمته الوحيدة. وقسا على من معه، من أجل هذه القيمة: الشىء الشريف. العمل الشريف. الإنتاج الشريف. الحياة غير الملوثة، التى لا تسبب قيئا لأهلها، وغثيانا لقارئيها وسامعيها،

وشعورا بالتهريج، فى وقت الجد، وإضاعة وقت للجميع، وفرصة الحياة ضيقة، وسنوات العمر قليلة، بالغة القلة، بخاصة حياته هو. بل كان يبذل من نفسه، من ذات نفسه، ومن القليل الذى يملك، لأصدقائه. لم يكفه أن يكون عفيفا. أن يعيش بنبل، عفيفا، مترفعاً!! وعاش ذلك الوحيد المتوحد، المستوحش أبدا للدفء والأمن، الذى يعيش من رفعة الروح، بعذوبة، وفى حزن داخلى محض، فى خوف من العالم، تقلقه طقوس الحياة اليومية والعائلية الواسعة، ينطوى على نفسه، يلملم علاقاته فى دائرة من الأصدقاء، ممن يحب. يحج إليهم زائرا، كلما اشتاق إلى أنيس. دائرة محدودة العدد، غنية القيمة.

برغم صغر سنه، انتمى وحيد النقاش ككاتب، إلى كتاب الخمسينيات، وهو دون العشرين من عمره، فى النصف الثانى من خمسينيات هذا القرن، وإلى فريق منهم على وجه التحديد، فريق لم يكن أبدا شلة، ولا تجمعا، ولا حلفا غير مقدس. وربما لم تجمعه وحدة نظر وإنما جمعته وحدة الخلق تقريبا، ووحدة الأمزجة والصداقات، ووحدة الجدية إلى حد لا بأس به، حد غالب بينهم، برغم سقوط الكثيرين من هذا الفريق، فريسة الاستدراج، وفريق آثر العمل، حسب طاقته وقدرته وموهبته، بل أحيانا أكثر من هذه الطاقة والقدرة، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، من إنتاجهم الأدبى المتوقع، ومن أنفسهم. وتعرض وحيد، كما تعرضوا غالبا، لذلك الإهمال، الذى كان يمكن وحده، أن يكون مثبطا رهيبا وقاتلا. ولكنهم ظلوا يعملون، ويتساقطون، وسط الظروف الاجتماعية التى يتساقط فيها الكثيرون من أبناء شعبنا، يتساقطون فريسة للمرض، مثل وحيد، فريسة للكرامة الإنسانية، مثل أنور المعداوى، فريسة للعزوف عن الحياة: القيمة والتحقق، مثل محيى الدين محمد. وعسى ألا يكون وداعنا لوحيد هذه الأيام، مثل وداعنا لأنور المعداوى، نذيرا آخر بانفراط العقد،

شارة الخطر، للموت فى الحياة، بعد الغنى فى النفس، والصمت فى المجتمع، والانتظار الممل المميت لما تقبل به الأيام من مر وعلقم.

خلال ستة عشر عاما تقريبا، أنجز وحيد أعمالا طيبة فى حياتنا. لم يقدر لها أن تحقق الفاعلية المطلوبة فى حياتنا الثقافية والاجتماعية، وأن تقع بها وبه فى دائرة الضوء، كما هو الحال مع معظم أفراد الفريق الذى ينتمى إليه، بل الجيل الذى ينتسب إليه، لأكثر من سبب، أخطرها أن هذا الفريق، بل هذا الجيل من الكتاب، أبناء الثلاثينيات والأربعينيات، قد وقع فى دائرة الظل القمرى، ظل ثلاثة أجيال أدبية سابقة عليه: جيل طه حسين، وجيل نجيب محفوظ، وجيل يوسف إدريس. وقع، فى هذا الظل، من الناحية الاجتماعية، وليس من الناحية الأدبية، ليس ذلك مهماً الآن. المهم هو: ماذا فعل وحيد النقاش، لنفسه، ولنا؟!

فى أواسط الخمسينيات، بدأ وحيد كتابته المنشورة، بتعليق نقدى، بالغ العمق، والصدق، والشفافية، عن مجموعة قصصية مترجمة، صدرت عام ١٩٥٤، بعنوان «عشر قصص عالمية». ترجمها الدكتور «سهيل إدريس». ونشر التعليق فى مجلة الآداب البيروتية. وبعده توالت تعليقات قليلة متناثرة، عن كتب أخرى، فى السنوات التالية. فلم يكن وحيد يكتب للمجاملة، أو الرغبة فى إثبات الوجود، فى أن يقول للكل: «إننى هنا»، أو لكسب قروش معدودة، مجرد الكسب، أو حتى لتغطية عمل لايقبل تغطيته. كان فقط، ودائما، يكتب ما يعتقده، يكتب عما يستثير فيه إعجابا ما، ويرضيه، ويبرر تقديمه للناس. عندئذ كان يفعل ذلك بسعادة بالغة، بل يحمله معه أينما ذهب، ويقول للأصدقاء فى مقاهيهم، فى بيوتهم: هل قرأتم كذا لفلان؟ هذا الكتاب؟ تلك القصة؟ هذا المقال؟ يستوى فى ذلك أن يكون هذا الفلان عربيا أو أجنبيا. مازلنا نذكر له سهرته معنا، ونحن طلاب بالجامعة، حتى ساعة متأخرة من الليل، وهو يقرأ لنا قصيدة

«رحلة فى الليل» للشاعر صلاح عبدالصبور، ويعيد قراءتها المرة بعد المرة، مؤكدا أنه أفضل شاعر، وأنها أجمل قصيدة، متغنيا من القلب بالقصيدة، وبإعجابه به. العكس تماما كان موقفه حيال إنتاجه هو. نادرا ما يشير إليه. وإذا حدثناه عنه، اضطرب اضطرابا حقيقياً، فى خجل وتواضع، معبراً بكلمات كالتمتمة، عن أنه غير راض عما يفعل، عن أنه لم يفعل بعد ما يودّ.

فى السنوات الأخيرة من الخمسينيات، وأوائل الستينيات، كتب وحيد النقاش عددا من القصص القصيرة، ظهرت فيها مبكرا لغته الشعرية الرهيفة، ولمساته الذكية، واختياراته العميقة الدلالة، للتفاصيل الصغيرة، وحساسية الوجدان المرهفة. أذكر من بينها: «على المنحدر» و«الموجة الأولى» و«الضوء عند حافة الأفق». وبينها كانت قصص قصيرة وصغيرة، كتبها بخطه الفريد، الدقيق، الصغير المنمنم، الأنيق، المركز كروحه وكفاياته، على صفحة صغيرة بحجم كف اليد. لم تنشر قط هذه الأقاصيص، ولعلها أن تكون الآن بين أوراق المخطوطة التى لم تنشر بعد. شيئان مازلت أذكرهما لهذه القصص: الحزن الأسيان الذى تشف منه فى رقة بالغة ونداوة مشعة. أسلوبه الخاص جدا، الذى يستمد رقة من روحه، ونعومة من ثقافته الفرنسية، المشع أبدا بهذه الخصوبة، بذلك الصفاء، بتلك العذوبة والأناقة، المتحرر أبدا من القوالب المأنوسة، والأكليشهات المأثورة.

فى السنوات التالية، كفّ وحيد، فيما أعلم، عن كتابة القصص. وعسى أن يخيب ظنى وعلمى. توالت تعليقات وحيد النقاش، ومقالاته النقدية، بصحف القاهرة ومجلاتها، ومجلة الآداب البيروتية على وجه الخصوص، عن الحياة الأدبية فى القاهرة، وإنتاجها، عن الحياة الأدبية فى باريس، وثمراتها فى مقالات مفردة حينا، أو فى أبواب ثابتة حينا آخر.

بعضها من تأليفه، وبعضها الآخر من ترجمته، وترجمها لأنها تعبر عن رأيه، أو تطرح وجهة نظر جديدة، وليس لمجرد العمل، والترجمة.

وبين إنتاج هذه السنوات، صدرت له أكثر من مسرحية مترجمة، اختارها بنفس العناية، بنفس الطريقة، لأنها أرضته، وحملت تبرير ترجمتها إلى العربية: «نساء طروادة» لسارتر، «يرما» للوركا، ونشرتهما له دار الآداب. و«عندما تعمى البصيرة» أو «مالا تستا» لهنرى دى مونترلان، التى نشرتها له هيئة التأليف والنشر فى سلسلتها المسرحية. ثم.. روايته المترجمة «صمت البحر» لفيركور. التى نشرتها له روايات الهلال، والكتاب الهام «ثورة ماو الثقافية» لمورافيا، والذى قام وحيد بترجمته وهو فى باريس، ونشرته له دار الآداب فى كتاب.

بين أعمال وحيد التى لم تنشر بعد فى كتاب، مسرحيتان قصيرتان. هما: «أيها الرجل.. لكم أنت جميل» لجان جيرودو، و«وردة لكل عام» لتنيسى وليامز، ونشرت كلتاهما فى عدد من مجلة المسرح عام ١٩٦٦، وبين ما لم ينشر أيضا فى كتابه من إنتاجه المترجم، عدد من الأقاصيص اليابانية، لكاتب كبير من اليابان. فاز بجائزة نوبل، ونشرت هذه القصص بصحيفة الأهرام، وقصة «الغرفة» لسارتر بمجلة «الشهر» على عددين، وقصة «الثوب» التى نشرت بالآداب عام ١٩٥٨.

لقد صدرت لوحيد ثمانية كتب، من المحزن أنها كلها، بين رواية ومسرحية ودراسة من المترجمات، هى على أهميتها، قيمة وفنية، واختيارا رفيعًا للترجمة، وتوفيقا فى نقلها إلى اللغة العربية، لا تعبر عن الموهبة الحقيقية لوحيد، ذلك الإنسان المبدع الخلاق أنها تعبر فقط عن مدى ثقافته، وحسن ذوقه، ومواكبته لثقافة العالم المعاصر، ورغبته الغيرية الخارقة، فى أن يفتننا بما فتنه، يسحرنا بما سحره، يفيدنا بما أفاده.

ومـاتزال قابعـة هناك، على أوراق الصـحف والمجـلات، وربما بين أوراقه المخطوطة أيضا: قصـصه القصيرة، ومقالاته وتعلـيقاته النقدية، عن المسرح والمسرحيات، والقصة والقصاصين، والظواهر السلبية والإيجابية فى حيـاتنا، والقصة والـقصاصـين، والظواهر السلبية والإيجـابية فى حـياتنا الأدبية، ورسائله الثـقافية التى كان يبـعث بها من باريس، إلى الأهرام فى القـاهرة، والآداب فى بيروت. ومن منا ينسى مـقالاته الممـتعـة، والمذهلة بصدقهـا وعمق تحليلها، وتركـيزها المكثف المدهش، ولغته الشـعرية، عن «ثورة الشـبـاب فى باريس» و«الحـائط الذى فـى أورشليم» «والقـلاع التى تنهض فى باريس»، ثم مـقـاله المبكر، ولعله الأول، عن كـتـاب « عشـر قصص عالمية» عام ١٩٥٤.. ليتها تصـدر جميعا فى كتب، يجمع بين كل منها وحدة الموضوع، قبل أن تجرفها الرمال المتحركة، التى نسير فوقها، فى النصف الثانى، من القرن العشرين.

بين قـصص كتـاب «عشر قـصص عالمـية»، كانت هـناك أقصـوصة قصيرة، مدهشة، وبالغة الامتياز، قصة «لكى يموت وحيدا»، وهى لكاتب فرنسى، حـملها وحيد، فى العـدد الذى نشرت به من الآداب، فى أوائل الخمسينيات، وقبل أن تنشر فى كتاب، وراح يقرؤها، ويقرئها، للأصدقاء، والمعارف، فى البـيوت، والمقاهى. كانت القـصة تحكى عن مجمـوعة من الناس سـقطت بهم طائرة فى الصـحـراء، واثروا البقـاء والانتظار بجـوار الطائرة، فى ظل جسمها، أينما استدار مع الجوع والعطش، وخطر الموت، إلا بطل القصة. آثر البطل أن يسيـر صوب البحر، الرمز، والأمل، والحلم بالنجاة، عابرا الرمـال، والسرابات، مقاوما الظمأ والجـوع، وتشقق اللسان والشـفاه، حـتى بلغ الشـاطئ وحيـدا، وعندما حـملوه إلى المسـتشـفى، وسألوه، أجابهم: «لا.. لم يعد هناك أحـدا».. لكأن هذه القصة، كانت نبوءة وحيـد المبكرة، لكأن إعجابه بها، كـان حدسه المبكر، بتجـربة حياته

كلها. مثله أبحر وحيد نحو البحر، آملا فى النجاة بالحلم، فى الوطن الحلم. آملا بالعودة بالحلم، إلى الأرض القدر، فهل نجا حقا؟ لو سألوه هنا، كما سألوا ذلك البطل، ماذا عساه كان يجيب؟ لعله أجاب. يقينا أن رسائله ويومياته من باريس، تحمل الجواب، ولعلنا نعرفه الآن!!

عرفته سنوات عديدة، معظم سنوات الخمسينيات. كنا فريقا: هو، وشقيقه رجاء، وغالب هلسا، ومحيى الدين محمد، وعبدالمحسن بدر، وإبراهيم منصور، وعبدالجليل حسن، وأبوالمعاطى أبوالنجا، وأنا، وبهاء طاهر. بهاء كان ومايزال فى طبيعته أشبه بوحيد. عيناه المتفرستان فى براءة طفولية، تذكرنى به دائما، بفضوله المحدق أبدا فى الأشياء. ومن بينهم، كنا ثالوثا أدبيا، فيما يخيل لى، نتبادل الهمس والنجوى، والبوح والاعتراف، والشكوى والأحلام: هو، وأبوالمعاطى، وأنا. . وكان هو خيرنا، إنسانا، وفنانا. معه، بل به، تفتحت أعيننا، فى سنواتنا الأولى بالقاهرة، على الأدب الفرنسى، والفلسفة الوجودية، والمترجمات العالمية، التى كانت، ولاتزال، تتدفق على قاهرتنا، من بيروت، ودمشق. ومن اختياره، قرأنا أعظم الروايات التى عرفها العالم. كنا: هو، وأنا، وأبوالمعاطى أبوالنجا، برغم بعدنا طويلا، وكثيرا، أحدنا عن الآخر، فقد كنا نشعر بأننا معاً، وأننا أحباء، وأننا أصدقاء، وأننا موجودون اللحظة فى مكان ما. الآن. نحن وحيدان من بعده، أنا وحيد من بعده، فرقت بيننا الأيام عشرة أعوام أو تزيد. رأيته خلالها ثلاث مرات. ياللكارثة. باعدت بيننا ظروف العمل من أجل العيش وأثقال الأيام. حملتنا رياح السندباد شرقا وغربا، حتى عندما كنا فى مدينة واحدة. وحين عدت إليه، أنتظر أوبته من بلاد الشمال. . يا للوحدة الرهيبة القاسية؟! كم أخطأنا!! وكم نفرط فيما كنا نملك ألا نفقده!! على الأقل، ألا نبتعد عنه، ولايفارق أعيننا!!. .

فى رواية «والدة» لفرانسوا مورياك. وقف الزوج بجوار زوجه المسجاة. شعر فجأة، هو الذى كان بعيدا عنها، على شدة قربه منها، يهملها بسبب أمه، بل يجفوها، ويقسو عليها، بأنها كانت خير النساء: جميلة، وصبورة وطيبة. وحين حطت على وجهها ذبابة، فزع، وراح يطاردها، يطردها، يذبّها، يدافعها عن وجهها النبيل، جسدها النبيل. أثرانى أفعل ذلك الآن. أطرد عن وجهه الحبيب، تلك الشائعة القاسية، التى تصبح لنا، فى بلادنا، موتا ثانيا بعد الموت، موتا حقيقيا للروح والذكرى، بعد موت الجسد: النسيان؟!

وداعا وحيد. لا. فليودعك كل العالم. إلاى!!

(كتب البورتريه فى عام وفاته)

الصوف

اللوحة القلمية أيضا قصص:

في ضوء تجربة عمنا يحيى الأدبية، ينبغى أن نعيد النظر بحذر ودقة، فى تمييزنا للقص عما سواه، من أشكال الأدب النثرية. فما هو قصّ، وفق تقييمنا التقليدي، بل وتقييم يحيى حقى نفسه للقص، ربما تواضعا، لايصدق إلا على سبعة من كتبه الثمانية والعشرين. فلا نحن، ولاهو، ندرج فى القص، تلك الصور الوصفية (كما يسميها فاروق عبدالقادر) أو اللوحات القلمية (كما يسميها يحيى حقى) التى رسم بها عمنا يحيي، ببراعة وتركيز وتكثيف، وبلغة قص مقتصدة، موحية الألفاظ، مشحونة الصور، شخوصا من شخوص الوطن، أو لحظة من لحظات الحياة، أو موقفا من مواقفها الدالة. وهي، فى رأيي، هذه الصور أو اللوحات، قص من القص، قص قصير جدا، قد يصح معه أن نسميه بالأقصوصة. ذلك المصطلح الذى «سكّه» يوماً صديقنا صبرى حافظ فى إحدى مقالاته بمجلة «المجلة».

وبذلك الصنيع تكتمل دائرة القص عند يحيى حقي، بين الأقصوصة فى «ناس فى الظل». والقصة القصيرة فى «دماء وطين» والقصة القصيرة الطويلة، أو الرواية القصيرة في: «البوسطجي» و«قنديل أم هاشم».

وهذا الأمر فات عمنا يحيى نفسه، وربما عن عمد، وهو يجمع حصاده الإبداعى قصًا ونقدا أو أدب خواطر، فى كتب هى كل مؤلفاته. وبالتحديد، حدث هذا مع اثنى عشر كتابا لعمنا يحيى، كلها بحاجة إلى إعادة نظر نقدية، يُجرى بها تمييز وفرز، لما هو أقاصيص عما عداها، و«ناس فى الظل» شاهد يحتذى، ودليل نسترشد به.

الغيط أم الحقل :

استجبت لعمنا يحيى، أقصد لدعوته لى، بعد نشرى لمجموعتى القصصية الأولى: «عطشان يا صبايا».

وأعطيته قصتى «العيون». وكنت أعرف ذوقه المصرى الرفيع، وحبه لرصد نفوس الشخوص، والتجارب المحلية المعاشة. وقلت له:

- إذا لم تعجبك لا تنشرها. ولاتسخر منى حين تخبرنى.

فابتسم بحنو، وقال لى مداعبا، وهو يأخذ القصة من يدى:

- أنت كاتب جيد. لكن : ما اسمك؟

ضحكت، وقلت له اسمى، وأنا أعرف أنه يعرف اسمى، فعاد يقول لى:

- هل كتبت قصة قبل هذه؟

فابتسمت وذكرته بمجموعتى التى أهديتها إليه، وذكرت اسمها. وقلت:

- يا عم يحيى. رفقا بنا. ماذا ستقول لى إذن، بعد أن تقرأ هذه القصة؟

فضحك عم يحيى من قلبه، بلا صوت، وقال:

- اشرب شايا معى.

وعدت إليه بعد شهر، أو شهرين، وتعمدت أن أكون زائراً، فلا أسأله عن القصة قط، لكنه فاجأنى، وكان جالسا وحده، بقوله:

- اجلس. وأخرج قصتك من هذا الصف.

جلست، وتربع هو كعادته، على كرسيه المنخفض، ووضع جبينه على عصاه، وقد أخرجت قصتى من صف القصص، وقال لى:

- اقرأها لى، أحب أن أسمع صوتك وأنت تقرأها.

تعمدت فى قراءتى ألا أخطئ، فى الوقت نفسه، أن تكون قراءتى أداء، وأن ألون صوتى الرتيب مع هذا الأداء، قدر الاستطاعة، فقال لى بعد حين:

- لا تجهد نفسك فى عدم الخطأ والسماع، فبعض الخطأ مفيد فى الأداء.

واستجبت له. فحبه يملأ قلبى، رضى عن قصتى أو لم يرض عنها، نشرها أو لم ينشرها، ولم يستوقفنى فى قصتى، إلا مرة. قال لى، وقد قلت لتوى، كلمة «الحقل»:

- انتظر. هذه الكلمة هى التى نتوقف عندها.

أدركت أنه قرأ قصتى من قبل، وأنه يريد أن يعطينى درسا، صبر لأجله مدة قراءتى كلها، وقال لى:

- ألا ترى معى، أن كلمة «الغيط» أوقع وأحسن، نحسها أفضل، وتوحى لنا بالكثير.

قلت:

- نعم. لكن..

فعاجلنى بقوله:

- من أين تخرجت؟

قلت:

- من الأزهر.

فقال لى:

- هذا هو السبب. تخفف. الكلمة المصرية كلها حياة، وذوق، أكمل قراءتك.

وقال لى فى النهاية:

- قصة بديعة. وغيّر بيدك الآن كلمة الحقل.. إذا شئت. فأنت مسئول عن عملك.

وغيرت الكلمة راضيا. وأنا فى دهشة لأمرين: أن أقرأ قصة ليقف بى عند كلمة، وأن يسمع بأذنيه صوت الكاتب وهو يقرأ عمله.

مرة أخرى: من أنت؟

كان الصديقان: أنور المعداوى، وفؤاد دوارة، يعملان آنذاك، مع عمنا يحيى، بمجلة، «المجلة»، يجلسان معه كل صباح، ويتوافد عليهم معا الأدباء، من شباب الستينيات، بينهم الأصحاء النفوس والعقول، وبينهم من هم مرضى النفس، أو على حافة المرض، بنوع أو آخر من أمراض.

الفصام. بينهم مبدعون حقا، وآخـرون خُدعوا عن أنفسهم، وعما يسرهم له الله في هذه الدنيا، فجاءوا يدقون أبواب النشر، طلبا لتحقيق الذات، أو للوجاهة الاجتـماعية، بين الأهل والأقارب والأصـحاب، ومرايا السطوح والجدران، وكـانت هذه اللقاءات تجف أحيـانا مع الوافدين، فـيملؤها عم يحيى بدعاباته، ومعاكساته، وكان بها مغرما، والعجيب أن هذا الغرام كان يجيء منه في صفو ومودة، وتومض معهما عيناه بشقاوة محببة.

قال لى، فور رؤيته لى، وكان قد نشر لى قصتى «العيون»:

- أين أنت؟ أين قصائدك؟

على معرفتى به، أُخـذت وذهلت، وصديقنا «أنور» ينظر لى راصدًا، ضاحك العينين، مبتسما بلا صوت. وقلت:

- يا عم يحيى، أنا لا أكتب الشعر.

فقال لى:

- عال. أنت تكتب إذن المقال.

ابتسمت. وقد فهمت، قلت:

- ولا المقال.

ففجأنى بقوله:

- أنت إذن تكتب الـقـصـة. لكن قل لى: أى قـصــة تكتب: أى بوليسية، أم عاطفية.. أم واقعية.. أم قصة من قصص هذه الأيام.

كان موجـوعا إذن من أكثر قصص تلك الأيـام، تلك المرصوصة فى صفـوف على مكتبين. وكان يعـانى. فما أفـظع معاناة من يصـدر مجلة، ومجلة أدبية رفيعة المستوى من الكاتبين. ومما كتبوه معا.

وحين رويت ما حدث، فى اليوم التالى، لصديقنا الشاعر «محمد إبراهيم أبو سنة» أخبرنى بموقف معه، مماثل لما حدث معى. وصارت مثل هذه المواقف من النوادر التى نذكر بها يحيى حقى، حين نعرض لاسمه أو لقصصه، معا.

أنشودة للبساطة:

تلفت النظر، دائما، عناوين عمنا يحيى التى اختارها بلماحية لكتبه، وكتاباته، مثلما يختار فى طى ما يكتبه تعابير مأثورة، اعتدنا على وصفها بالأكليشيهات، وإدانة من يكتبونها، إلا من عم يحيى. فهو الوحيد، بيننا القادر على وضعها فى موضعها، ومنحها فى هذا الموضع حياة جديدة، مليئة بالود والمحبة، تلقى الرضا والقبول، وتثير الدهشة.

وبين هذه العناوين «أنشودة للبساطة» الذى قرأته، إثر صدوره، بشغف واستفزتنى قراءته. كان الكتاب يضم نقودات تطبيقية، لظواهر أدبية وقصصية فى قصص جيلنا من شباب وكهول الستينيات، أو بالأحرى فى أدب متأدبين، من حقبة ما بين الحرب العالمية الثانية، وحرب عام ١٩٦٧، وكلهم من كتاب الطبقة الثالثة - والعاشرة وبينهم من كتب له مقدمة لمجموعة فى سنوات الخمسينيات والستينيات. وكان فى انتقاداته لتلك الظواهر رقيقًا ومتألقًا، وهو يقطع بشفرة رفيقة.

وبين تلك الظواهر، كانت توقفاته، على ما أذكر، عند القصة النكتة- والقصة المغامرة، والقصة المراهقة، والقصة الحدوتة العارية من كل لغة للقص، والقصة المسرفة فى المجاز، والقصة التى تخلط بين ما هو تجربة للشعر وما هو تجربة للقص، والقصة التى لا تحسن استخدام اللغة ومهاراتها ووسائلها، والقصة ذات العضلات السياسية المباشرة، والقصة الاستاتيكية التى لا نمو فيها ولا تطور، ولا أثر لعين لماحة ذكية.

ولقلة خبرتى، تصديت مدافعا عن الأدب الشاب، وعن بداياته التى لا تستحق أن تخنق بهذا المنهج القاسى. ونشرت تعليقى على«أنشودة للبساطة» فى صحيفة «المساء» .واتصل عمنا يحيى بى، وبارك ضاحكا، بروح الأب، ثورتى، ثم قال لى: «والله أنا أحب هؤلاء الشباب، وأتمنى لهم كل خير. أحبهم ياسليمان أكثر مما تحبهم أنت، وأفرح بكل موهبة، لكن القص لا يكون هكذا، وهم لا يصبرون، ولا يقرأون، ولا يريدون أن يتعلموا شيئا من أحد. عذبونى فى صمت ياسليمان. وأنا راض بهذا العذاب على أمل أن يخرج واحد من كل مائة. ويوما يا سليمان ستكون فى مثل مكانى. وعسى عندئذ أن تكون بهم رحيما». وتحققت نبوءة عمنا يحيى. فهأنذا أعانى الأمرين، من المتأدبين وبريد المتأدبين، وهوج المتأدبين، وفى المقر نفسه الذى كانت به مجلة «المجلة».

كويتب يهدد بالانتحار:

روى لى عمنا وخالنا يحيى حقى، موقفا من معاناته ممن يحترفون الكتابة، لمجردأن لديهم حدوتة، من حواديت الناس، وهى، كما قال، أكثر من الهّم على القلب: جاء أحدهم إليه، حاملا ما يسميه قصة، وقدمها له قائلا:

- هذه قصة هايلة. أحسن قصة كتبتها فى حياتى.واخترت مجلة «المجلة» بالذات لنشرها، فلا أحد سيعجب بها سوى يحيى حقى. أقصد مثل يحيى حقى.

قال يحيى حقى:

- اتركها لى، وسوف أقرؤها.

وألح الكويتب على عمنا يحيى أن يقرأها الآن. ولم يجد عمنا يحيى مفرا، فأعطاها له، وهو يتربع، مستعدا، وقال:

- اقرأها لى بنفسك. أريد أن أسمعك.

فجلس الكويتب محرجا، ومضطرا، وأخـذ يقرأ بثقة، قراءة لا نحو فيهـا ولا صرف ولا إملاء. قرأ فقـرة كاملة، وأزعج نشازها وهيافـتها عم يحيى، فقال له بدعابة:

- يا ابنى. ربما كانت قـصتك أفضل من قراءتك. اتركـها لى، وإذا وجدتها صالحة. سأنشرها أول قصة بالمجلة. فمزاجى الآن ليس طيبا.

عندئذ، نهض الكويتب، وبدا له عريضا، ورياضيا، بفانلته الرياضية، وحذاءه الرياضى. وقال الكويتب:

- سأعود فى أول فـرصة من بلدى. فأنا قادم إليك خصـيصا، وكل أهل البلد يسلمون عليك، وينتظرون قراءة قصة ابنهم فى مجلتك.

فضحك يحيى حقى، وضحكته ابتسامة، لها ألف معنى، وقال:

- ما تنساش تسلم لى عليهم. أزعل جدا لو نسيت سلامى.

وذهب الكويتب، ليعود مرارا، كل أسبـوع، وعمنا يحيى يشفق على نفسـه والمجلة، من الكويتب الرياضى، المعلق الروح بنشـر قصـة، ويتعلل بالأعذار، عن أنه لم يقرأ قصته بعـد، فالكتبة بالمئات، كالزؤان فى أرز لم يغربل. حتى كانت مرة اعتذر له فيها عـمنا يحيى عن نشر قصته، وموصيا إياه بالقراءة، والمحاولة، فاندفع الكويتب الرياضى نحو شرفة المجلة، وفرد ساقيه جالسا على حديد سـورها، وهدد بالانتحار، إذا لم تنشر قصته، وإذا لم يقل له ذلـك الآن، وفى أول عـدد قـادم من «المجلـة»، فـذوق رئيس التحرير ليس هو كل أذواق القـراء. وأسرع إليه عمنا يحيى، مشـفقا على

هذا الجسد الرياضـى من الانتحار فعلا، فى لحظة جـد أو تهديد أو هزل، وأمسك به، قائلا له:

- سأنشرها يا ابنى. سأنشرها، والله سأنشرها،وفى العدد القادم بس انزل، وتعال معى.

وجلس يحيى معه، يرنو إلى واحـد من خلق الله، ولم يستسلم إليه تماما، فقال له:

- سأنشرها في العدد القادم، كـما وعدتك، لكن لى شرطا واحدا. لا تأتى إلى بقصة أخرى.

فقال الكويتب بلهفة:

- أعدك وعد شـرف. فأمنية حياتى أن أنشـر فى مجلة «المجلة» ولو مرة. مرة واحدة.

ونشر عمنا يحـيى القصة، وروض نفســه على الاعتذار لمن يزورونه، عن رداءة هذه القصة، ويأخـذ فى حكاية الحكاية من جديد لكل لائم، أو معاتب.

هذا المقال هو المقدمة:

ودع الدنيا صـديقنا، «وحيد النقـاش». وجمعنا نحن أصـدقاءه، مع أشقائه، حصاد كتـاباته الأدبية: قصصا ومقالات ومترجـمات، لتصدر معا فى مجلد واحـد. وضممنا إليـها كل ما كـتب عن وحيد النقـاش فى عام الوداع، وفى طليـعتـه ذلك الملف الطيب الذى نشرته عنه مـجلة «الآداب» البيروتيـة. والذى كان لى شرف تحريره من القـاهرة، وذهب رجاء النقاش بذلك الكتـاب، المجلد، إلى عمنا يـحيى ليكتب له مـقدمـة، عنه، وعن

صديقه الشاب الراحل، الذى كـان يؤثره بالحب. لكن عمنا يحيى حين قرأ ما كتب عـن وحيد، توقف عند مقـالى عنه، وقال معتـذرا لآل وحيد عن مشاركته: هذا المقال (مقـالى) هو المقدمة التى تليق بهذا الكتاب، وكدت، حين بلغنى قوله، أن آتيه، على حزنى، زهوا، بتـقدير عمنا يحيى، وبرغم طبع ملازم هذا الكتـاب، لم يطبع غلافه، ولم يره قارئ، ولا مـساهم فى تحريره، فقد انزلقت عليه أحـداث محزنة جرت مع رجاء، وربما كان ذلك الكتاب قد «دشتت» ملازمه، وحين سألنى عمنا يحيى عن الكتاب، وعرف ما حدث له، قال بقلب ينفرط أسى: ذهب جهدكم هباءً وسدى.

أمام المصعد:

وقـفت فى الطابور، انتظر نزول المصـعد، بمبنى التليـفزيون، وجـاء المصعد وخرج منه يحيى حـقى. رأيته بعصاه، ونظرته المطرقه، ولم يرنى، فخرجت من الطـابور متوجها إليـه، استوقفتـه، وصافحتـه، كان قد ترك مجلة «المجلة» إلى الأبد، وترك سـواها معها، عـدا لجان الثقافـة والإعلام بالدولة، قال لى:

- لم جئت هنا؟

قلت ضاحكا، ومعتذرا:

- نرتزق من «قافات» الإذاعة يا عم يحيى.

فقال لى غاضبا:

- نربى عددا معدودا من كتاب القصة، ويأخذهم منا هذا المبنى؟!

فقلت له:

- يا عم يحيى. لا نجد ما نكتبه من قصص دائما، لو كتبت فى السنة كلها ثلاث قصص أو أربع، فأنا الرابح.

فقال لى:

- يا سليمان. القصة لا تحب الشريك. احترس.

وتركنى ومضى وحيدا كعادته.

أمسية ثقافية:

فوجئت بالصديق «فاروق شوشة» يخبرنى، أننى مدعو كضيف، فى برنامجه «أمسية ثقافية»، وقال لى فاروق: المناسبة هى عيد ميلاد يحيى حقى (الكذا) وأنه قد طلبك بالاسم، أنت، و«نعيم عطية». و«اسماعيل ولى الدين» لتكونوا معه فى الأمسية.

ودهشت لطلب عمنا يحيى. فأنا لم أكتب عنه حرفا. ولم أعبرله قط عن حبى لقصصه، وافتتانى بكيفية تعامله مع اللغة، والصور.

وظللت حائرا أياما، أفكر فى إعادة قراءة أعماله، ولا أفعل، وأتوجس خيفة من حرارة اللقاء، أمام الكاميرا وضوء الكشافات المروّع، الذى يسيح كل الأفكار من الرأس، حتى وجدتنى جالسا معه، ومع نعيم وفاروق أمام الكاميرا، وخطر لى قبل أن يبدأ التسجيل، أن عمنا يحيى أراد بوجودى، أن يرى نفسه، حياته بأسرها فى شهادة مبدع، من جيل يلى جيله، ويرى عمله وصنيعه فى مرآة الغير، فالمشافهة عنده، هكذا قدرت، أصدق من الكتابة ألف مرة، وأوجز. أنئذ، تبدد خوفى، وقلت لنفسى: «سأفتح قلبى فحسب». وكنت أعلم أن صديقنا «نعيم» يمر بظرف صعب، لا يعلمه عمنا يحيى، وعلى أن أملأ وعمنا يحيى هذه الأمسية بالكلام،

وأذكر أننى توقفت، فيما قلته، ليس عند حياة عمنا يحيى، وإنما عند إنجازه القصصى، ونجاحه فيما يدعو إليه، ودائما، كل القصاصين: اللغة المقتصدة فى القص، والأسلوب العلمى فى القص، ومع ذلك تظل هذه اللغة شعرا من الشعر، وتنأى عن الفصحى العالية، إلى الفصحى المخففة. مع ذلك فهى أنقى وأروع من كل فصحى. هذه اللغة تضافر فيها، ولها: العقل والقلب. الوعى واللاوعى، كان ذلك، فيما أذكر، أهم ما تحدثت عنه فى تلك الأمسية، وبلغة حديث ثقافة لا نحو فيها ولا صرف غالبا. وكنت ألمح أحيانا وجه عمنا يحيى سعيداً بقولى، سعيدا بهذه النقطة التى توقفت عندها، وركزت عليها، إلى درجة أنه قال مؤكدا: أنا لا يهمنى ما يبقى منى. ما يهمنى هو هذه الدعوة: اللغة المقتصدة. هذه اللغة كيف يمكن شرحها إذا لم نحمل هذه الفكرة معنا. ونعاود قراءة قصص عمنا يحيى، لنرى رؤية العين لغة عمنا يحيى المقتصدة، وننصت إلى إيقاعها، ونحن نقرأ لغة يحيى حقى، ونتوقف عند مثل هذا التعبير المشحون بثقل الوجود كله «الدنيا داست عليها ومشيت». أعتقد أننى تعلمت درسا من هذه اللغة المقتصدة، اللغة التى لا تغرق فى الترادف، ولا المجاز. لغة الواقع اليومى محملة بالإيقاع، والإيحاء. بالشعر كله. وأذكر هنا أننى أجبت عن سؤال سأله لى الناشر الفرنسى «هنرى مارسيلان». المسئول عن النشر بدار «دنويل» الفرنسية، فى باريس، والذى نشر لى روايتى «أصوات» بالفرنسية، وكان يترجم بيننا صديقى «عبدالعظيم الوردانى» طوال خمس ساعات. قال لى:

- روايتك «أصوات» مركزة، وشديدة الاقتصاد كان بوسعك أن تجعل منها رواية طويلة، ضخمة. ممن تعلمت هذا الاقتصاد فى القص؟

قلت له دون تردد، فأنا أعرف أستاذىّ:

- من يحيى حقى. ومن أرنست همينجواى. ويحيى حقى كان درسا أدبيا لى، بأعـمال أدبيـة، فى هذا الاقتصـاد، أقوى من درس همـينجواى معى. فقد قرأته عبر ترجمة من الإنجليزية إلى العربية.

وأخبرنى هنـرى مارسيلان بأن «دنويل» ستـنشر ليحيى حقـى روايتيه القصيرتين «قنديل أم هاشم» و«البوسطجى» فكان تعليقى هو :

- لقد تأخرتم كـثيرا فى ترجمة يحيى حـقى. وأخشى أن لا تتمكن الفرنسية من نقل ما توحى به كلمات عمنا يحيى إليها. أما أنا، فالأمر معى أيسر، فلغتى أقل شاعرية، من لغة شاعر القـصة العربية، وشيخها: يحيى حقى.

الجائزة التى لا تغنى أحدا :

حين تمنح الدولة جائزتها (الرسمية) التقديرية لفائز بها، يفوتها أمور: يفـوتها أن القـيمة المـادية لتلك الجائزة لا تطعم كـاتبا ولا عـالما ولا فناناً. فمبلغهـا الزهيد (خمسة آلاف جنيه) لا تغنيـه عن ضروراته إلا لعام. وهى عادة لا تمنح لأحـد إلا فى ختام عـمره، وهو يواجـه فى سنوات المعاش، أمراض الشيخـوخة الصائتة والصامتة، والظاهرة والمسـتترة، ويعانى من قلة الكسب لعدم القدرة، وضعف الطاقة، ووهن البصر والحركة.. ويفوتها أن هذا المبلغ كانت له قيمة شرائية ورصيـدية، نسبيا، قبل أكثر من ربع قرن. ولو أننا قسمناه على قـدرته الشرائية التى آل إليها الآن، على خـمسين مرة مثـلا، لصارت لا تزيد عن مـائة جنيه.. ويفـوتها أن القـيمة المـادية لهذه الجائزة المصرية (الرسمية) تنافس منافسـة حادة، تثير الحزن والضحك معا، بجوائز تقـديرية أخرى، بل وبجوائز تشـجيعـية، من دول عربيـة أخرى، وأشخاص عرب. ولن يضير دولة مثل مصـر، بحجمها ومنزلتها الريادية، وتاريخها وحـضارتها، أن ترفع قيمـة هذه الجائزة التقديرية (الرسـمية) إلى

مائة ألف مثلا، كى تتوازى مع معانى التقدير والحماية لكاتب أو عالم أو فنان، هو، بوجوده وذاته وعمله، ثروة قومية، وهى التى تبقى فى النهاية من حضارة الوطن للأجيال اللاحقة، وتشهد لها مثلما تشهد عليها.

وهذا الحرج هو الذى واجهه عمنا يحيى، ربما أكثر مما واجهه سواه، ممن نالوا جوائز الدولة التقديرية (الرسمية) فى مصرنا العجيب. واجتمع عليه هذا الحرج مع حرج آخر، هو ذلك المعاش الهذيل الذى أخرج به يحيى حقى فى سن المعاش، دون أن يشكو إلا لخالقه سوء الحال، أو يقدم التماسا لمنحه معاشا استثنائيا، أو يسمح لأحد من أصدقائه ومحبيه أن يكتب عن هذا الأمر الذى فوتح فيه مرارا، بل وكان يغضب من محدثيه ويحذرهم بأن ذلك سيؤذيه، ويؤثر ألا يسأل الدولة إلحافا، أو يسألها نيابة عن أحد، ويؤثر أن ينطوى وآل بيته، تعففا، وعلى مسغبة، ويسعى ليشترى ضرورات بقروش، يقسمها على أيامه، وأدوية مرضه تقسيما بالقسطاس، وأن يشترى ضرورات بيته بنفسه، وقد جاوز الثمانين، واحتاج سمعه إلى ترجمان، وبصره إلى دليل، وأن ينتظر من يحمل له غسيله إلى المغسلة من الأصدقاء لعجزه عن حمله، إلى.. إلى أن منحت له جائزة الملك فيصل العالمية، قبل أعوام قليلة. ولهذه الجائزة معه قصة.

قصة جائزة فيصل العالمية:

صباح يوم الأربعاء، أحرص على متابعة أخبار الأدب، فى صفحة الأدب الأسبوعية بجريدة الأخبار. ويوم أربعاء وقعت عينى على خبر ترشيح جامعة الاسكندرية، وبالضرورة كلية الآداب بها، لأحد مدرسيها أو أساتذتها لجائزة فيصل العالمية، لينال القيمة الأدبية والمادية لهذه الجائزة. عندئذ طار صوابى، فذلك المرشح لم تعرف له جودة قص، ولا نعرف له

نحن قبيلة القصاصين أثرا فى القص بيننا.

وكيف ترشح كلية، فى جامعة محترمة، مثله، وتترك أعلاما أحياء فى القص، فى مصر، والوطن العربى، يجاوز عددهم العشر، وعبر أربعة أجيال فى القرن العشرين؟ وكيف ستمنح هذه الجائزة، وأول جائزة لها فى القص، لمثله؟ وما الذى سيقوله عنا أشقاؤنا العرب من المغرب إلى الرياض؟.

وحملت الصحيفة إلى الدكتور عبدالقادر القط، فى مكتبه بمجلة «إبداع»، وكان آنئذ رئيس تحرير لها، وأحد المحكمين البارزين، فى جائزة الملك فيصل العالمية، وهو الذى اقترح أن تكون للقصة العربية جائزتها بين الجوائز الأخرى. وقرأ الدكتور عبدالقادر الخبر فى صمت، وشاركنى الوجوم مع الصديقين : سعيد الكفراوى، «وعبدالله الماجد» الأديب السعودى. قلت له مستحثا:

- كيف يرشح مثله؛ ولدينا نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وقبلهما: يحيى حقى، عمرا، وأثرا، وحياة. وهو بعد فى ظرف صعب مع أمراض الشيخوخة، والمعاش القليل، و.. هو بها أحق لألف سبب؟!

وقال عبدالله الماجد عندئذ:

- إذا لم ترشح مصر يحيى حقى. سأسافر إلى السعودية، وأدعو الجامعات السعودية إلى ترشيحه.

فقال لى الدكتور عبدالقادر بهدوء:

- سأعمل على أن ترشح جامعة عين شمس يحيى حقى للجائزة. عليك أنت بصديقيك: عبدالمحسن طه بدر، وجابر عصفور كى ترشحه أيضا جامعة القاهرة، ولم أكذب خبرا. وكان. رشح «يحيى حقى» من

الجامعتين للجائزة وهو لا يعلم. فقد كان فى باريس للعلاج، وملئت استمارة تقديمه للجائزة وهو لا يعلم، وحين أرسلوا من الرياض يطلبون عشر نسخ من كتبه، كانت المشكلة هى كيفية إرسالها، وهى تزيد على العشرين كتابا، وكم يكلف شحنها؟

واتصلنا بمكتب الحرس الوطنى بالقاهرة، فحملها مشكورا إلى أمانة الجائزة. ومنح يحيى حقى الجائزة، ولم يقدر عمنا يحيى لمرضه على حضور الاحتفال بمنحه إياها، فتسلمها عنه زوج كريمته.

مفاجآت أخيرة :

قبل أيام من وداع عمنا يحيى لنا، سألتنى كاتبة أجنبية، تزور «أتيليه القاهرة» عن الطريق إلى بيت عمنا يحيى، قالت لى إنها تريد أن تجرى معه حديثا لصحيفة فى وطنها، فأخبرتها بمرضه فى عمره المتقدم، وأعطيتها رقم تليفونه لتحدد معه موعدا، وتأخذ منه عنوانه إذا شاء أن يعطيه لها، فهذا حقه على.

وفى اليوم التالى أخبرتنى، تلك الكاتبة ، أن عمنا يحيى رد عليها قائلا بحزن: «يا ابنتى. أنا لم أعد قادرا على ذلك أيضا. قد تقرئين غدا، أو بعد غد نعيى فى الصحف، فدعينى فى حالى».

ولم ينقض ذلك الأسبوع، إلا وكان وداع عمنا يحيى لنا، بلا حقيبة سفر فى يده. وداع آثر عمنا يحيى ألا يخلو من دعابة أخيرة، هو بها الفائز حقا، بين ستين مليونا من أهل مصر.

دق جرس التليفون فى مجلة إبداع، وسأل السائل عن الشاعر «أحمد عبدالمعطى حجازى»، فذكرت له أنه مشغول الآن مع ضيف، وذكرت

اسـمى، عفـوا، للسائل، فطـلب منى كلمة عن عـمنا يحـيى لصحـيفـة الجمهورية، فسألته عن المناسبة، وقد توجست خيفة فقال لى: ثعيش أنت. وجمت، مع أن رحيله متوقعـا. ثم قلت: ليس هذا وقته، فقال لى: أنت تعرف الصحافة ودورها، فى مثل هذا الموقف. أمليته ما فتح الله به على، واتصلت سكرتيرة المجلة، «سلوى مصطفى» ببيت يحـيى لتسأل عن موعد الجنازة، فقـال لها من بالبـيت: لقد تم دفنه فعـلا. هذه كانت وصيـته أن يكرم بدفنه إثر مـوته. ولا يبلغ أحـد بنعيـه قبل ذلك. وجـاءت المفاجـأة التالية، فى اليوم التالى، مع نشر نعيـه، فقد طلب ممن يقرأ نعيه أن يقرأ له الفاتحـة. فقلت: لقد فـاز بها وقرأ له الفاتحـة كل قارئ، وكانت المفـاجأة الأخيـرة أنه أوصى أيضًا ألا يقـيم له أهله سرادق عـزاء، ومع ذلك ذهبنا للعـزاء فى عمنا يحـيى، فى سرادق بعـمر مكرم، بعـد يومين، أقامـه له صديقنا سعد الدين وهبه، باسم اتحاد الفنانين العرب.

ومن عـجب، أننى لـم أر تلك الوجـوه التى أحـبت يحـيى حـقى، وأحب هو أصحـابها فردا فـردا، حتى بدون تقـدير أدبى فيه لأهلهـا، فلا وجوه مـثقفين تذكر، ولا قـراء، إلا من قلة قليلة، لعل أكثـرهم كانوا من موظفى الدولة، واتحاد الفنانين، وبين هذه الوجوه كان: سعد الدين وهبه، ومصطفى حلمى، ونجيب مـحفوظ، وصبرى مـوسى، وعبدالله الطوخى، وسعيد الكفراوى، ومحمد إبراهيم أبو سنة، وعبدالعال الحمامصى.

وأدركت كم كانت وحـدة عمنا يحيى، فى سنواتـه الأخيرة قاسـية، وكم صارت وحـدته فريدة، بعـد وداعه لنا، فى هذا السـرادق، ولعله أن يعرف الآن أن هذه الوحدة لا تدل على شىء، فحبه حياة وحصادا كان فى مليون قلب قرأ له أصحابها الفاتحة، فقد كان بحياته، ذلك الصوفى الفنان، صـاحب الطريقـة والقول، وشـاهدا حـيا على الزهـد والتعـفف، والحب والعطاء، والـقـول من القلب، والكـتـابة بمداد الروح، لدى الـعـارفين، والمريدين، من الكاتبين، والقارئين.

العبقرى المقهور

بين عام وآخر، تتذكر القاهرة، واحدا من عباقرتها «المقهورين»، كلما جاءت ذكرى رحيله، . وهى في قلبى وقلوب محبيه، كأنها ذكراه الأولى، أو كـأنها يوم وداعنا نحن الذيـن أحبـبناه كاتبـا وناقـدا، ينفذ بقلمـه إلى الجوهر، دون غرق فى الـتفاصيل، ودون لجوء إلى البطـاقات، والمونتاج، والقص واللـزق. وفى كل دراسـاته وأبحـاثه، ومـقـالاته وأحـاديثـه، ومحاضراته وندواته، كان يملأ بحضـوره الفكرى، والحياتى، عقول وقلوب من عاصروه.

فى ذكراه تنشر، أحـيانا، باقة من المقالات فى مجلة أدبيـة، أو تعقد ندوة فى ناد للفنانين عن كاتبنا العبقرى «**الدكتور محمد مندور**».

وفى ذكراه أذكره أنا بهذه المواقف.

حـوار :

مررت إذ كنـت بمبنى إذاعة القـاهرة (فى أواخر الخـمسينـيات) حين كانت ماتزال بمبنـاها العتيق بشارع الشريفين، عـلى استوديو (١٢)، لزيارة صديق، وجـدته بالاستوديو يقـدم نشرة الظهيـرة، وكانت أمام الاسـتوديو طرقة كالركن، وابتهج قلبى حين رأيت الدكتـور «محمد مندور»، جالسا،

يلفّ لنفسه سيجارة، ويلصق ورقها بطرف لسانه، كنت أعرفه من صوره، وكان عطاؤه القلمى صديقا حميما لعقلى وقلبى، حييت، وجلست. ودهشت إذ رأيت معه الراقصة الشهيرة «سهير زكى» فى فستان باهر يليق بها، وكانت مزهوة بنفسها: الحركة، والنظرة، والالتفافة. وكان مندور فى بدلته البيضاء، يبدو على جرمه، ضائعا فى اتساعها.

أشعل مندور سيجارته اللف، قال لها، للمرأة التى يحدثها:

- رأيت رقصك يا بنت يا «سهير».

ضحكت «سهير» وقالت:

- أعجبك.

مطّ مندور شفتيه، وقال لها:

- لا بأس.

فقالت «سهير» بزهو:

- لو رأيتنى ببدلة الرقص الحقيقية، وليس فى هذه البدلة الحشمة، التى فرضها علينا «يحيى حقى»، ومصلحة الفنون، لقلت كلمة أفضل من ذلك.

ابتسم مندور وقال بسخرية:

- البركة فى نوادى آخر الليل!!

وتضاحكت «سهير»، وسكتتْ مغاضبة، فالرجل الكهل «قفل»، ورمقها مندور وقال:

- بنت يا «سهير» كم تكسبين فى الشهر؟

ضحكت، وقالت مغيظة:

- لم تسأل يا دكتور؟

فأجابها وهو يتنهد:

- فضول سخيف، لا تجيبى.

تضاحكت «سهير»، ووضعت ساقا على ساق، وقالت:

- احسب لى يا دكتور مندور، آخذ فى النصف ساعة مائة وخمسين جنيه، وأرقص أربعة أنصاف ساعة فى كل ليلة، حتى فى ليالى الجمع، كم تظننى أكسب فى الشهر، هذا طبعا، عدا الأفلام، والأفراح والليالى الملاح.

وفرقع ضحكها فى الركن الضيق، الوثير المقاعد، والأريكة.

وصمت مندور، وراح يعد كالطفل على أصابعه، ويحرك كفيه بالزائد والناقص ثم قال:

- حسبة تحيّر يا «سهير». أظن دخلك فى الشهر عشرين ألفا.

صاحت المرأة بظفر:

- بل ثلاثين يا دكتور، بلا مبالغة، فى المتوسط يعنى.

وبدا «مندور» لى مبهوتا، وقد لاذ بالصمت، وأشعل سيجارة لف أخرى وأطرق. كنت أعلم أن «مندور»، قد أبعد عن الجامعة، بفضل جهود زميله «ر. ر» كرجل غير مرغوب فيه، فى عمل يتصل فيه بالشباب، ولأنه لم ينتهز الفرصة، ويتقرب، ويتودّد، بفكره، وقلمه، واتصاله، بأولى الشأن الجدد فى هذا البلد، وكنت أعلم أنه عولج من انفصال شبكى فى عينيه الاثنتين، خارج البلاد، بسبب قطعه لسنوات عمره كلها فى القراءة

والكتابة، وإذ رفع منـدور رأسه، قال لـ«سـهير» فى غـضب أبوى حزين، ورفيق، وضاحك:

- وأنا ضيعت عمرى فى الورق والقلـم يا «سهير». بوسعى الجلوس على صف من كتبى يا سهير.

ووجمـت سهيـر وارتجفت شـفتـاها، ولـم تجد مـا تقوله، فـأطرقت صامتة.

والتفت لى «مندور»، وقال:

- وأنت يا بنى، لم جئت هنا الآن؟

قلت، والقلب من اللحظة مثقل:

- أرتزق.

ضحك مندور عندئذ، وقال:

- مثلى !!

ثم قال:

- حدثنى عن نفسك يا . . ما اسمك؟

البحث عن عمل:

مبنى الاستعلامات ما يزال قائما، ولنفس غاياته بشارع طلعت حرب (سليمان باشا سابقا). وكنت أصعد سلالمه التى لا تنتهى، فالمصعد لم يكن مـباحـا لغـير الموظفين، إلى الدور (كـذا)، لأقـدم طلبا للـعمل بمصلحـة الاستعلامـات، أو بهيئتها، لا أذكر. كنت قـد تخرجت من الكلية، وكان ترتيـبى يسمح لى بالتـعيين، لولا عـدم وجود ميـزانية لوظائف الـتدريس

بالتربية والتعليم، فرحت أطرق أبواب مبانى أجهزة الثقافة والإعلام الجديدة فى البلاد.

وفوجئت بمن يضع يدا رفيقة على كتفى، ويسألنى: إلى أين يا أبا داود، رأيت الدكتور «مندور» أمامى، غارقا لم يزل فى بدلته البيضاء (الشاركسكين)، وتوقفنا على الدرج، وأخبرته بما جئت لأجله، فقال لى:

- تعال معى. سأقدمك إلى رئيس الاستعلامات «عبدالمنعم شميس»، وأوصيه بك.

وعاد الرجل يصعد معى سلالم لا تنتهى، كان قد فرغ من نزولها لتوه، ودخل معى مكتب «عبدالمنعم شميس»، وهو يلهث، ولم ينظر إلينا عبدالمنعم شميس، أحس بنا من ظل ألقاه مصباح وراءنا على مكتبه، فقال: نعم. فأخذ منى «مندور» الطلب، وألقى عليه نظرة، وقدمه لعبدالمنعم شميس، وقال:

- هذا الولد يريد أن يعمل معك، وأنا أوصيك به، فهو أهل للعمل فى الثقافة.

رفع عبدالمنعم رأسه، بدا ممتعض الوجه، فى وجهه قرف الدنيا، والأوراق مطروحة بلا نظام على مكتبه الواسع، وقال بضيق:

- أمن أجل هذا عدت؟

فقال «مندور» بهدوء:

- نعم، وصعدت سلالم، فهو عزيز على.

فقال عبدالمنعم بنفس الضيق، وقد سقطت «شوّافته» إلى أرنبة أنفه:

- طيب دعه لى.

وعاد عبدالمنعم ينكب على الأوراق. وسحبنى «مندور»جانبا وهمس لى:

- اجلس ولا تغادر المكتب، حتى يبت فى طلبك، سأنتظر بمقهى «لاباس».

وانصرف «مندور» عنى، وظللت واقفا حتى مللت، فجلست. وحين رفع عبدالمنعم رأسه عن الورق، ورآنى قال:

- ألا تزال هنا؟ اذهب، وسوف نخبرك إن كنا نريدك.

وقفت، وعرفت نتيجة طلبى فى تلك اللحظة، وأسرعت إلى مقهى «لاباس».

وجلست صامتا، فتضاحك مندور وقال لى:

- قال لك: سوف نخبرك إن كنا نريدك.

فهززت رأسى، وهمست: «لا عليك يا دكتور». فقال لى ضاحكا:

- لا تيأس يا أبا داود، مازال باقيا لنا أن نكتب بالقطعة!!

حفل تكريم:

كنت قد التحقت بعمل فى «مطبخ» مجلة مصورة، مهمتى فيه المراجعة الفنية صحفيا ولغويا، لما ينشر بالمجلة، وكان «مندور» آنذاك من كتابها الدائمين، بالقطعة أيضا، وحدث أن سكرتير تحرير المجلة «س» قرر أن يترك المجلة، ليعمل نائبا لرئيس تحرير صحيفة يومية. ودعينا، نحن الذين نعمل بها، كتابا بالقطعة، ومحررين دائمين، إلى حفل تكريم، تقيمه المجلة بالنادى الذى تصدر باسمه المجلة، لسكرتير التحرير «س». وفوجئنا بمائدة حافلة بطول القاعة، وعلى رأسها رئيس التحرير «ص» الذى لم نكن نراه إلا نادرا، فقد كان آنذاك شخصية بالغة الخطر والخطورة فى البلاد.

وإثر انتهاء وليمة الشاى والجاتوهات، جلسنا فى الليلة الباردة، بقاعة دافئة، ودارت أحاديث متقطعة لا قيمة لها حتى يذكرها أحد، وكان الدكتور «مندور» جالسا معنا، يمارس هوايته المعتادة : لف سيجارة من تبغ بعلبة صفيح بنية اللون، وكان صامتا، مطرقا، ومن وجهه، أدركت أنه قد عزم على أمر، ولمحه رئيس التحرير «ص» فقال له متضاحكا بغموض:

- لم نسمع صوتك يا دكتور مندور.

فقال مندور بجسارة صادقة ومبهرة:

- وهل تركتم لى صوتا يا أستاذ..؟

بهت «ص» وقال:

- لم يا دكتور مندور؟ مازلت تكتب، وتمشى، وتعود إلى بيتك، وتروح وتجىء، وها أنت معنا من كتاب المجلة.

فقال مندور:

- اسمح لى يا أستاذ... بسؤالين: أولا: لم فصلت من الجامعة يا أستاذ؟

فقال «ص» متضاحكا:

- دعك من هذا السؤال الآن هذه مسألة عليا.

فعاد مندور يقول:

- ولم أصدرتم تعليمات للعاملين بالإذاعة، حتى لا يُطلب منى حديث، أو أدعى إلى ندوة؟

فقال «ص» بثقة وتأكيد:

- لم يحدث ذلك يا دكتور مندور، ليست هناك تعليمات بمنع أحد، لا أنت ولا غيرك.

وتضاحك، ثم قال:

- ربما كانت هذه المواقف من تصرفات العاملين بالإذاعة الصغار، من مقدمى البرامج يعبرون عن رأيهم فيك، كجيل جديد.

فهز «مندور» رأسه نفيا، وقال:

- لا يا أستاذ كلهم من تلاميذى، وقد قرأوا لى، ويتعاطفون معى، ويعرفون أن ورائى : «حياتى»، وسجائرى اللفّ هذه، والأقلام التى أحتاجها، والكتب التى أشتريها، والورق الذى لابد منه.. و«كوم» عيال يا أستاذ...

وكأن الصمت قد صار له رنين. ولم يدم الصمت طويلا فقد قطعه «مندور» بقوله:

هناك أوراق يوقعها مقدمو البرامج بأسماء المتعاملين إلى فوق، وتعود الأوراق إليهم من فوق، وعليها إشارة «×» أمام بعض الأسماء، بالقلم الرصاص يا أستاذ...

وعاد الصمت ذو الرنين، وبدا «ص» جامد الوجه، ومُحرجا بين الحضور، ثم قال «مندور»:

- وأحيانا يا أستاذ تكفى مكالمة تليفونية من فوق.. فلان: لا.. ويشيع الخبر فى المبنى كله، بل فى المدينة بأسرها يا أستاذ... لقد عرفت هذه المعلومات من الشارع يا أستاذ.

أخذ «ص» يتضاحك، وقال:

- إذن سأحدثك بصراحة يا دكتور مندور، أفكارك لا تتفق معنا..!!

عندئذ ضحك مندور وقال:

- وأنتم يا أستاذ، ألم تتأثروا بهذه الأفكار، وتستفيدوا منها فى عملكم فى نطاق واسع، ومع ذلك فأنا فيما أقول وأكتبه حريص على عدم الصدام المباشر، فكريا، حرصى على «كوم» العيال، أذكر لى قولا واحدا بالإذاعة حذف من التسجيل، أو سطرا بمقال حذفه الرقيب؟

وعاد الصمت ذو الرنين، حتى قال رئيس التحرير «ص»:

- مُرّ على غدا بمكتبى يا دكتور مندور، وسأسوى هذا الأمر.

ونهض رئيس التحرير مغادرا المكان، وهو يشير بيده بتحية عامة، وأخذ الكل فى الانصراف، وبقيت جالسا مع الدكتور «مندور»، وبقى معنا سكرتير التحرير «س» الذى قال:

- هذا الرجل عضو لجنة الإشراف بأعلى مؤسسة بالبلاد، أحد أعضاء خمسة، ولا يعرف كيف يكتب حرفا يا دكتور، أنا نفسى كتبت باسمه عشرات المقالات السياسية، بل المئات، فلا تحزن يا دكتور.

وانصرف «س»، وانصرف «مندور» وبقيت جالسا مبهوتا، وإذ غادرت القاعة الدافئة، للحديقة الباردة، رأيت «مندور» يسير وحيدا، تائها فى بدلته البيضاء بين مصابيح الأشجار، سرت بجواره، ولمحته يمسح دموعا لا صوت لها.

قال لى:

- اسمع يا ولد فى أول فرصة تتاح لك، ابتعد عن الصحافة وأهلها، لا تَضَع وقتك وقلمك فى «خيّة»، كن كاتبا صعلوكا، أو فى عمل وظيفى لا يعرف رفاقك فيه أنك كاتب.

وعاد مندور إلى الكتابة بالقطعة للإذاعة، والعجيب أنه لم يدع للكتابة فى المجلة، منذ أن جاءها سكرتير جديد للتحرير.

اللقاء الأخير :

قابلتـه، الدكتـور مندور، صدفة، يـسير عل رصـيف بشارع القـصر العينى، توقفت مسلما سألنى:

- ماذا تعمل الآن؟

قلت:

- أكتب قصصا، وأغلقت المجلة، بسبب صراعات «أهلها»، وأخذنى «س» بالصحيـفة التى يعمل بها نائبا لرئيس التـحرير، ومازلت أبحث عن طريق آخر أعمل فيه بنصيحتك!!

فقال لى:

- وكيف حال الصحيفة الآن؟

فقلت:

- العجيب أنها صارت توزع مائة وعشرين ألفا، بعد أن كان توزيعها سبـعة عشـر ألفا فـقط، وكله بسبب «كـوبون اليانصيب» الـذى تنشره فى الصفحة الأولى، والقراء الغلابة الذين يحلمون بالثراء.

فضحك «مندور» وقال بمرارة:

- وماذا فى ذلك.. «الكلأ» يُوزّع أكثر!!

ولم ألتق بأستـاذى وصديقى «مندور» بعدها. لكن مـشهد ابتسـامته المرورة، لا يزال ماثلا أمام عينى!!

فارس العصر

وجـــه :

كنا صحـبة «ريفيون حالمـون»، قراء أدب كسوس الخشب. مـشاريع كُتّاب نبحث عن حظوظنا فى العاصمـة والجامعات. كلنا كنا ندرس العلوم النظرية والإنسانيـة، نشترى الكتب بقـروشنا القليلة لنقرأها، ونجد أكـثر ما نقرؤه فى مكتبـات الأحياء العامة، والكليات. ونتـردد على مقاهى الأدب وندواته: إيزافيتش، وريش، والـعجمى، وعبدالله، وفى كل مـقهى كانت صحبة ومجموعة، شلة أو جماعة أدبية، لا يجمع بين أفرادها سوى المعرفة والصداقة والصحبة.

صحبنى الصديق، القصـصى الشاب آنذاك: «أبو المعاطى أبو النجا»، إلى صـديقه الـناقد اللامع «أنور المـعداوى». وكـان «أبو المعـاطى» يكتب قصـصا تنشر بآخر صـفحة أو صـفحتين بمجلة «الرسـالة» الثقافيـة الأدبية الأسبـوعيـة، وكان «أنـور المعداوى»، آنذاك، نجم الحـركة النقـدية بالمجلة صاحب أسلوب أدبى فريد، ونظرة نقـدية خاصة، فيما يعـرضه من أعمال الأدب التى تنشـر، وفيمـا يخوضـه من معـارك أدبية ساخنـة. كان «أنور المعداوى» فـارس مجلة «الرسالة» والحركـة الأدبية على اتساعهـا فى أواخر

الأربعينيات، وأوائل الخمسينيات، وكان «أبو المعاطى» قد حرص على لقائه والتعرف به، وتوطدت بينهما صداقة الأستاذ بالتلميذ، وقدمنى «أبو المعاطى» إليه، بمقهى «عبدالله» بالجيزة.

كنا نجلس على هامش المجلس على رصيف المقهى بميدان الجيزة، فى الصيف، وبداخله فى الشتاء، وكان مجلسا يوميا، نسمع، ونرى ونحتفظ بآرائنا داخلنا. فيما نسمع، فى ندوة «أنور المعداوى» اليومية هذه، وكانت مجلة «الرسالة» قد احتجبت، ورأينا شعراء كبار، وأساتذة جامعيين، وتعرفنا إلى شباب مثلنا، ريفيين حالمين، مشاريع كتاب، ونمت بيننا الصحبة، وبعضنا شق طريقا، وبعضنا توارى عن الدنيا، أو تخلى عن حلمه.

بدا لى الكاتب «أنور المعداوى» مثلما تخيلته فى تعقيباته النقدية، فارسا حقيقيا، فى حديثه، ومرحه، واعتزازه بنفسه، وتعاليه على آلامه الخاصة التى لا أعرفها، ولا أظن أنه باح بها كثيرا إلا لقلة قليلة، ولم أنفذ قط إلى قلبه عدة سنين، مثل صديقى «أبو المعاطى»، و«ر. ن».

وكنت أعلم أن بين كل منهما، و«أنور المعداوى» مودة القلب والسرّ والنجوى، لكن «أنور المعداوى» كان قادرا أبدا على أن يوزع حبه، وحفاوته على الجميع فى مجلسه، فلا يشعر أحد من ناشئى الكتاب خاصة بغبْن ما. وأحيانا كنا نجد «أنور المعداوى» يلعب الشطرنج، أو النرد مع الدكتور «عبدالقادر القط» كانت له ضحكة حلوة، ما أرقها، وأعذبها، وأقربها إلى النفوس، وهو صامت، وهو يدخن، وهو يتسلى باللعب.

وكان من عاداته أن يحيِّى أى وافد جديد من ناشئة الأدب، بشاى، أو قهوة، مرة واحدة، وبعدها يشرب الوافد على حسابه، فقد أصبح تلقائيا عضوا فى الندوة، من حقه أن يتكلم إذا شاء، ويصمت إذا شاء، وينكت

إذا أحب. النبل كان يشع من وجهه، وروحه، وابتسامته الندية أبدا، وكان بوسع أى أحد أن يقرأ له شعرا، أو يعطيه قصة يقرؤها فى بيته. ودائما كان «أنور المعداوى» يقول رأيه فيما قرأه، لصاحب الشعر أو القصة منفردا، خاصة حين تكون له ملاحظات غير طيبة عما سمعه من شعر، أو قرأه من قصة. وكنا جميعا نجلّ قوله، مثلما نجلّه، ونعتبر رأيه فيما كتبناه درسا، ينبغى أن نفكر فيه، قبلنا رأيه أو رفضناه.

كان يحدثنا أحيان عن صديقه الشاعر الراحل «على محمود طه»، عن فروسيته ونبله، وحبه لترف الروح، والجسد، والطعام، والبيت الذى لم نره نحن، العامر بالتحف والتماثيل، وكنا نشعر من حديثه عنه، أنه قد فقد بفقده، نصف روحه، ونصف حياته.

قرأ لى قصتين، لم يرض عنهما، فأعادهما لى، وقال:

- استمر، ما كتبته محاولة.

ولزم الصمت. وشعرتُ بالحرج، فلم يقل لى أى تعليق آخر.

الصمت:

نشر صديقى «أبو المعاطى» مجموعته القصصية الأولى «فتاة فى المدينة»، وتصدرت قصص مجموعته مقدمة ضافية، مليئة بالتحليل والرضا، كتبها: «أنور» عن قصص «أبو المعاطى». وكنت قد بدأت أنشر قصصا فى مجلة «الآداب» البيروتية، وأذيعها هى نفسها فى البرنامج الثانى بإذاعة القاهرة، اخترت من بينها ثمانى قصص لنشرها فى كتاب، وقدمتها إلى «أنور» ليقرأها، ويقدم لها، إن رضى عنها، وشاء ذلك. هكذا قلت له. أخذ ملف القصص، وحمله معه إلى بيته. سألته، بعد شهر وشهرين، وكان يقول لى:

- لم أقرأها بعد.

ويلوذ بصمت عميق، لم أشفق على نفسى من الحرج، بقدر إشفاقى على حرجه هو معى. حدثتنى نفسى أنه غير راض عما صنعت، ولمته فى نفسى لأنه لا يقول ذلك، ودون أى حاجة منى إلى اعتذار منه، فأنا أحبه، بقدر ثقتى بما كتبته.

كانت قد حدثت جفوة بسبب سوء تفاهم، بينى وبين الصديق «ر. ن»، وقيل لى إنه قد شكانى إلى «أنور»، وإنه لذلك يلزم الصمت، وكأنه قد عزف عن التقديم لقصصى، تركت هذا الأمر فى نفسى مفتوحا لاحتمالات المصارحة يوما، وكانت فى النفس مرارة، يطويها فى القلب ذلك الحب للصديقين، وسافرت للعمل بالسعودية.

عدت بعد أشهر تسعة. سألت «أنور» عن المجموعة. طلبتها لأنشرها فأعادها إلى، ولم أعاتبه، ولم يعتب على فى أمر، لكننى كنت أرى فى عينيه حزنا لا أعرف سببه، قلت لنفسى: «هذا الرجل لا يكتب إلا إذا أحب الكتابة والكاتب معاً»، وكان على أن أتعلم من نبله، وصمته، وترفعه درسا. فطبعت من مجموعتى الأولى، على قدر مالى، ألف نسخة، وأهديت أول نسخة إليه، قال لى:

- مبروك.

ولزم الصمت، وحيانى بقهوة بعد غياب، وغادرت القاهرة إلى السعودية بعد يومين، عائدا إلى عملى، مدرسا بالطائف هذه المرة.

بداية النهاية:

إذ عدت إلى القاهرة، دهشت للحفاوة التى استقبلت بها مجموعتى القصصية الأولى من الأدباء الشبان خاصة. كتبوا عنها خمسة عشر مقالا.

ولم ألتق بالصديق «أنور»، فقد كان عليّ الرحيل إلى مركز البدارى. الذى عينت به مدرسا بمدرسته الإعدادية الثانوية، وحزنت أشد الحزن، إذ علمت أن صديقنا «أنور» قد نقل من عمله، كعضو بالإدارة الثقافية العليا بوزارة التربية والتعليم. كان رئيس الإدارة عندئذ هو الدكتور «سليمان حزين»، وقيل لى أن كلا منهما: «أنور»، و«سليمان»، لم يهضم الآخر، وأن الخلاف قد كبر بينهما وغُذّى. فنقل «سليمان» صديقنا الفارس مدرسا بمدرسة ثانوية بحدائق القبة، وصار الحزن عميقا فى القلب، حين عدت فى زورة إلى القاهرة، وكنت قد نقلت إلى الإسكندرية، وجلست مع «أنور» فى ندوته اليومية، كانت ضحكته العذبة قد صارت ممرورة، وحزينة وبدا لى أنه كعادته، يترفع، ويتصالب. حدثنا فيما حدث، قال:

- هل تتصورون أن ناظر المدرسة خصص لى يوما للإشراف على حوش المدرسة، مهمتى فيه أن أحمل عصا، وأمنع التلاميذ من التزويغ، ونط السور؟ لم أكترث بشىء مما قاله، وتركت التلاميذ يفعلون ما يشاءون، فغضب، وأظن أنه سيتخذ إجراء ما.

ساد بيننا الصمت فى المجلس، زبدا هو كأنه لا يبالى بهذا الأمر، عاد إلى الحديث، والنقاش، وكأنه قد لام نفسه على بوحه وشكواه. وجاء صديق الشاب، كان بلا عمل، فقال له أنور» إنه قد حدث صديقه رئيس التحرير «فلان»، فوافق على عمله بمجلته، وطلب منه الذهاب إليها. وعاد يؤكد أنه سيذهب إليه معه إليه غدا.

وحدثت الواقعة. قدم «أنور» استقالته من عمله كمدرس، وبقى بلا عمل، ينام ويقرأ نهاره، ويسهر ليله بندوته مع الكتاب والأدباء، من كل الأجيال. عجبت لأمر صاحبنا «أنور»، يقدم خدماته، ويستثمر علاقاته لغيره، ويأبى أن يطلب ذلك لنفسه، وربما لأننا كنا نهابه، ونعرف ترفعه، فيما يخصه، لم نحدثه فى هذا الأمر.

المأساة :

علمت وأنا بالإسكندرية أن صديقنا الفارس قد صار نائبا لرئيس تحرير مجلة «المجلة»، التى كان يرأس تحريرها آنذاك «يحيى حقى» مع «فؤاد دوارة»، وبأجر مضحك هو خمسة وعشرون جنيها، زرته فى المجلة، فرحب بى ضاحك الثغر، وقدمنى إلى «يحيى حقى»، وعدت إلى الإسكندرية.

فوجئت، ذات صباح بمقال كتبه «غالى شكرى» بصحيفة «الأهرام» يروى فيها مأساة صديقنا الفارس «أنور»، انسلخ من الوسط كله بالقاهرة، ومن المدينة بأسرها، وحمّل «غالى» الحياة الثقافية ووزارة الثقافة المسؤولية، وطالب له بكذا وكذا.

عدت إلى القاهرة مفزّعا، علمت أن صديقنا «أنور» قد غطس فى الإسكندرية عند أقارب له، وقيل إنه قد شوهد يسير شاردا، ساهما فى الليالى الباردة بالبيجاما والشبشب.

أخذت العنوان، وذهبت أبحث عن الحىّ، وعن البيت، نهارا، فلم أجده، قيل لى إنه خرج، ولا يعرف أحد متى يعود، تركت له خطابا حارا مخضبا بالدموع، أطلب لقاءه، وأدعوه للاقامة فى بيتى إلى أن يهدأ نفسا.

وعاد «أنور» إلى القاهرة» بعد أيام لا أذكر عددها، لكننى على يقين أن حب الأصحاب له هو الذى أعاده.

عادة كان أنور يجلس على المقهى، وذهبت للقائه، وجدته فى أطيب حال، يؤكد أنه سوف يعود للكتابة، وأنه سيكتب عن، وعن، ويقهر ضغط الدم الذى يعانى منه بالقلم وحده، وسعدنا به، ورجونا، وتساءلت فى نفسى: هل سيستطيع، هو الفارس، أن يعيش من قلمه، وهو يأبى فى روحه المجاملة، ووضع أى حسابات فى اعتباره؟!

العشاء الأخير :

سهرنا معه بالمقهى ذات ليلة، كان يتحدث ويضحك، ويعد بالمنى نفسه، ويمدنا بها معه، وأخذ يلعب «الطاولة» مع صديقه الناقد «عبدالقادر»، وغادرناه، ثم ذهب هو إلى مطعم كازينو بالهرم، فيما أذكر، مع صديقه الأثير «عبدالقادر»، ليسهرا، ويتعشيا معا.

فى اليوم التالى، حُمل إلينا نعيه، بُهتّ، ولم أبك، حتى اليوم ولم أبكه قط، لكنه ظل حيا فى القلب.

علمنا أنه أكل سمكا، ورفّه عن نفسه فى مجلسه مع صاحبه بشرب البيرة، وعاد إلى بيته، قيل لنا إنه وجد نفسه مرهقا، وإنه قد وضع رأسه فى حجر أمه ليغفو، وربما تقلبت عليه مواجع النفس مع مواجع الجسد، كان يعيش طول حياته وحيدا فى بيت صغير بالدقى، ولفظ نفسه الأخير بين يدى أمه، قيل لنا إن أمه، بحثت ليلا عمن تتصل به أو تخبره، بما حدث لفارسها، فلم تجد سوى بطاقة عليها اسم «نعمان عاشور»، ورقم تليفونه، فحدثته فى قلب الليل، تخبره، وتدعوه.. لنجدتها.

تحولات كاتب

نسخ بالكربون :

بين كتاب مجلة «الرسالة» للزيات، شدنى إليه الناقد الكبير «سيد قطب». جذبنى إليه قلمه المرهف السيّال، ولغته الشفيفة، الموحية بما بما وراءها من معان وظلال، وكأنها غلالات رقيقة نسجتها أنغام، بدت لى مقالاته على صفحات «الرسالة» آية من آيات النثر الفنى فى أروع وأوضح ذراه.

كان العقاد» صاحب أسلوب عصرى يستمد منطقه وتقاسيمه من أسلوب «ابن المقفع»، وكان «طه حسين» صاحب أسلوب عصرى آخر، يستمد ترسله من أسلوب «أبو عثمان الجاحظ»، وكان كلاهما يتربّع على عرش عصرى من عروش فصحى اللغة، وكانت ساحة النثر، فى أدب المقال، تبدو وكأن ليس فيها من مزيد. كان «طه حسين»، فكان نسيجا فريدا فيه، وكذلك كان «المازنى»، و«العقاد»، و«الرافعى»، وبدا الأمر وكأن ليس بوسع أحد سواهم أن يقدم أسلوبا عصريا جديدا فى «أدب المقال».

وجاء «سيد قطب»، ليقدم أسلوبا آخر جديدا، يجمع فى إهاب كلماته وتراكيبه، بين قدرة «طه حسين» على التنغيم والإيقاع، وقدرة

«العقـاد» على المنطق، وحسن التقـسيم، فى جمله الطوال والقـصار، بين قدرة «طه حسين» على توليـد أبنية مهملة من الألفاظ، وقـدرة العقاد على توليـد الأفكار والمعانى، والاحـتمـالات والترجيـحات، بل ويضـيف إلى قدرات العملاقين هذه السيولة الدفاقة، واللاذعة السخرية للمازنى، دون أن يقع فى شراك الكـلمات والتراكـيب العاميـة، ويضيف هذه التـسجيـعات للرافعى، دون تكلف فـيها أو إغراق وإسراف وغـمرنى يقين بأن الأسلوب هو الكاتب، وأن الكاتب هو أسلوبه، انـتقاء للألـفاظ الدالّة، والموحـية، واختيارًا للجمل الطوال أو القـصار فى جو يصنع إطار الموضوع، ويقدم له صوره وإيقاعه ورؤاه.

وكان أول مـا قرأت لسـيد قطب، فى سن الصبـا، ونحن ندرج مع اللغة والأدب، مـقالين على صفحـات «الرسالة»، يحمل أولهـما عنوان: «نسخ بالكربون»، وكان عن سـيدة الغناء العربى «أم كلثوم»، وكـان الثانى عن الموسيقار «محمد عبدالوهاب». وأذكر أنه قال عن «أم كلثوم» إنها خامة صـوتية، كـونية، مـدهشـة، لم تجد بعـد الملحن الذى يحـررها من طابع التطريب فى الأفـراح، والليالى الملاح، ومجـالس السمـر، وكيف أن من يحـاولون «تقليـد أم كلثـوم» نسخ بالكربون، لا ترقى إلى أصـالة الأصل وبهائه ونصوعه، إلى آخر ماورد بالمقال.

وشد انتبـاهى إلى «سيد قطب» فى مقـاله ذاك، روح دفاق فى قلب الكاتب، يجعله يغمس قلمـه فى قلبه، وضميره، ومشـاعره، وعقل فطن يوجّه اليد التى تكـتب، معلنا تمرده على كل محظور لا يـقبله المنطق، ولا تباركه التجربة.

وقلت لنفسى: هذا كاتب له قضية، بل قـضايا فى الحياة، والمجتمع، والناس. صوت من أصـوات التقدم الكونيـة بين البشر، ويقف طليـعة فى

مجال النثر الفنى لهذا الجيل التالى لجيل الرواد من أصحاب القضايا الاجتماعية، والثقافية، والأساليب الأدبية.

وجاءت مقالاته التالية، رسائل إلى صديقه الكاتب «عباس خضر» من أمريكا، وكان قد ذهب فى رحلة إليها، وتكشفت لى من هذه المقالات/ الرسائل قضيته الكبرى فى ذلك الحين، قضية العروبة والأصالة، بل قضية حضارة الشرق بأسره التى أثمرت قيما إنسانية وأديانا وضعية وسماوية، فى مواجهة حضارة الغرب، التى تفككت فيها الأسر، وشحُب الشعور بما هو تواصل إنسانى فى العلاقات.

وفيما بعد اتسعت دائرة قراءتى، أدركت أنه كان كاتبًا لا يتحيز ولا يتردد فى مواجهة صدمة الحضارة الغربية، أدرك بسرعة وبحسم مالها من فضل، وما بها من قصور، وأدرك بفطنة ويقين ما نملكه من تراث رفيع من القيم الإنسانية، وما نفتقده من تنظيم للعمل، وأخْذ بوسائل التطور العصرية. لم يقع فى فخاخ الصراع الحائر فى النفس الذى وقع فيه «أديب» طه حسين و«أيامه» و«عصفور» الحكيم، و«اسماعيل» يحيى حقى. استوعب دروس الصدمة بسرعة ووضوح، مثلما فعل من قبله رفاعه، والشدياق، فى مواجهة صدمة الحضارة.

تفتت قلبى معه، وهو يصف مشهد رجل عصَر عنقه فى أمريكا المصعدُ الكهربائى، فتدلى لسانه، والناس من حوله لا يرتجفون للمشهد، وإنما يضحكون له، ويقلدون تدلّىَ اللسان من الفم المفتوح فى العنق المعصور، وشعرت بموت الإنسانية هناك، وامتلأت بالدهشة، وهو يقول ساخرا لإحداهن، هناك، على المائدة: إن الناس فى بلاده يأكلون البطيخ وعليه الفلفل والشطة، فتسارع بسكب الفلفل والشطة على البطيخ، وتأكله، وتتلذذ بطعمه وتصيح: أوه كم هو لذيذ.

وأحسب أن هذه المقالات وسواها، مما نشرته له الرسالة ومجلات أخرى، فى سنوات الأربعينيات، لم تجمع بعد فى كتاب، مثلما لم يجمع ما نشره على صفحات الرسالة من أشعار فى ديوان، وانتقى هو من هذه المقالات مقالاته النقدية، ونشرها فى كتابه «كتب وشخصيات». وليت أحد الناشرين يجمع بقية مقالاته، وينشرها فى أكثر من كتاب، فهى حلقة مفقودة من تحولات الكاتب «سيد قطب»، وتشهد على مرحلة ثقافية واجتماعية، من مراحل الثقافة والحياة الاجتماعية فى مصر العربية، وبينها كتاباته فى صحيفة «مصر الفتاة»، وفى مجلات «الكشكول»، و«دار العلوم».

النقد التكاملى :

حين كنت طالبا بمدينة المنصورة، رحت أبحث فى المكتبة العامة بالمدينة، وأجمع من مكتبات السوق كتب «سيد» التى أحببتها، كانت كلها كتبا نقدية مباشرة، أو ترتبط بالنقد بسبب من أسباب بلاغة التعبير، وفصاحة الأسلوب. وحسن الأداء، واستقامة المعالجة.

كان بينها كتابان: «التصور الفنى فى القرآن»، و«مشهد القيامة فى القرآن»، وكلاهما درس من دروس بلاغة التعبير فى القرآن، تتموج مع تموج الموضوعات والسياقات.

وكان بينها كتاب نقدى بحت، توقفت عنده طويلا، وكان الكتاب عن «النقد التكاملى» ويطول الحديث، لو تحدثت الآن، عن موضوعات أبوابه وفصوله، وعن منهجه ورؤيته ومنحاه، ووجدتنى أربط بينه وبين كتاب آخر، فى مجال آخر، وقرأته ليوسف مراد، ذلك هو كتاب «علم النفس التكاملى».

كانت ثمة مدارس فى علم النفس، وكانت ثمة مدارس فى النقد الأدبى، وكان لكل منهما مناهجه، ودهشت لمحاولة «سيد» الجسور فى خلق منهج أدبى واحد، من مناهج الدراسات النقدية، وتجمع بينها فى إهاب، مثل دهشتى من محاولة «يوسف مراد» الجسور فى صهر مناهج المدارس النفسية فى منهج واحد.

وبدا لى الأمر وكأن روح عصر تتحرك فى النفس العربية، والعقل العربى، وتوجههما نحو هذا الصهر للمتفرقات من مدارس العصر فى بوتقة واحدة، فالموضوع واحد، وسبل النظر إليه تتعدد، وكأن النفس العربية، والعقل العربى، يميلان أبدا إلى هذا النهج الحضارى منذ ميلاد الحضارة العربية الإسلامية فى العصر العباسى، فهو النهج نفسه الذى سار عليه إخوان الصفا، وفلاسفة المسلمين وعلماؤهم، منذ القرن الثانى للهجرة، الثامن للميلاد، ولقد ظلوا يسيرون على هذا النهج، فى دأب مقدور، حتى فى عصور الانحطاط السياسية، إلى بدايات القرن الميلادى التاسع عشر.

وكان بينها كتاب «كتب وشخصيات»، وكنت قد قرأت قبل وقت قريب رواية «خان الخليلى» لنجيب محفوظ، واكتشفت كاتبا، يقف على قدم المساواة فى المحاولة مع بلزاك، وديكنز، وزولا، ووجدت فى هذا الكتاب دراسة نقدية لهذه الرواية، ودراسة أخرى عن رواية «مليم الأكبر» لعادل كامل، الذى عرفت فيما بعد أنه رائد الواقعية الحقيقى فى مصر، والأستاذ الأول لنجيب محفوظ على تقاربهما فى سنوات العمر، مثلما عرفت فيما بعد أن «سيد قطب» كان أول ناقد يقيّم هذين الكاتبين للناس، فى وقت كان النقاد فيه لا يكترثون بغير نقد الشعر، ونقد أدب التراث، ولايحفلون فى قليل أو كثير، بنقد المسرح والقصة، إلا فى نادر الأحيان.

ولم يدر بخاطرى أن كاتبى «سيد قطب»، سوف يتوقف ذات يوم عن عطائه النقدى، ومساهمته فى الحياة الأدبية، وسوف يخسره المبدعون للأدب، فى شكليه الجديدين خاصة: المسرح، والقص، إلى درجة أنه كتب سطورا قليلة، وجهها للشاعرة نازك الملائكة، يعتذر فيها عن المشاركة بمقال نقدى فى مجلة «الآداب» البيروتية، لأنه وجه اهتمامه وعمره لقضية أخرى أكبر عنده وأجل، هى الدعوة إلى مجتمع الإسلام.

الخراف الضالة :

دهشت ذات يوم حين رأيت لسيد قطب، كتابا يحمل عنوان: «العدالة الاجتماعية فى الإسلام»، قلت لنفسى: «من النقد يتحول الكاتب سيد قطب إلى الكتابات الإسلامية، مثلما تحول من قبله طه حسين فى: «على هامش السيرة»، و«الشيخان»، و«الوعد الحق»، و«مرآة الإسلام»، ومثلما تحول من قبله العقاد فى «العبقريات» وسواها من كتبه الإسلامية..».

قرأت كتاب سيد عن «العدالة الاجتماعية فى الإسلام». أعجبنى نهجه فيه ومنطقه، وحيثياته من نصوص القرآن والحديث، وواقع التاريخ، لكننى ظللت أسأل نفسى بحيرة: «لم كان هذا التحول فجأة؟ هل كان كتاباه «التصوير الفنى» و«مشاهد القيامة»، وهما من النقد البلاغى الحديث، إرهاصًا بسيره فى طريق الدارسات الإسلامية؟ هل يئس الكاتب من دور ما لفعالية الكلمة المبدعة والناقدة فى تغيير المجتمع، وشعر بخلوّ الساحة العربية من فلسفة عصرية، تفجّر وتحدّو إمكانيات المجتمع العربى وناسه، فطرق بكتابه هذا الدرب، ليقدم بالإسلام نهجا وفلسفة لوطن وعصر.. أم أن سيد يجرى عليه ما يجرى على غيره من الكتاب العرب من تحولات، فى زمن عزّ فيه تحت سماء الشرق، العثور على فلسفة،

ونظام يحقق التوازن العصرى لناس هذه البلاد؟ أم أن الخراف الضالة لا تلبث أن تعود إلى حظائرها بعد طول اغتراب؟».

ولم أجد جوابا لسؤالى إلا بعد لقائى بضع مرات بسيد قطب، فى داره الفسيحة بضاحية حلوان، وكانت الثورة قد بسطت سلطان الجيش على أرض مصر، وأخذت تناوئ الأحزاب، وكنت قد كتبت مقالا بمجلة الرسالة، بعثت به بالبريد من المنصورة، ونشرته الرسالة فى باب عرض الكتب، وكان المقال عن كتابه الإسلامى التالى: «السلام العالمى والإسلام».

وكان «سيد» قد أخذ يكتب تفسيرًا للقرآن، تحت عنوان «فى ظلال القرآن». وينحو فى تفسيره نحوا نفسيا، وبلاغيا، ويفسر فيه القرآن بالقرآن، وبالحديث الصحيح، وبمناسبة النزول للآيات، فى لغة شاعرية نثرية عزيزة المنال، وقدر له أن ينجز بقية أجزاء هذا التفسير وهو فى قلب السجن، قبل شنقه بحبل مجدول!

اللقاء الأول:

فى اليوم الأول لى بالقاهرة، ومن فندق شعبى بشارع «كلوت بك» بحثت فى دليل التليفون عن رقم تليفون كاتبى الأثير، وجاءنى صوته، فأخبرته باسمى، وبرغبتى فى زيارته، فوصف لى العنوان إلى بيته فى حلوان، وأرشدنى إليه بدقة وكأنه حريص على اللقاء.

وجدته جالسا فى حديقة بيته، تحت شجرة عتيقة، تتدلى منها بين الأغصان مصابيح الكهرباء، أخذنى خادم إليه، كان يلبس جلبابا أبيض، كان أسمر اللون، بيضاوى الوجه، يحمل عينين واسعتين، غافيتين أبدا، وبدا لى وهو ينهض مُصافحا نحيل القوام، وكان يجلس معه الشاعر

«محمـود أبو الوفا»، وشعرت إذ جلست مـعه. (وعينا أبو الوفا تـرقبانى) بغربته، وغربتى.

شكرنى على مقالى عن كتـابه، وشردت عيناه، ينصت إلى السكون. وزقزقة ما، خافتة، لطيور بين الأغصان فى أشجار الحديقة. سألنى من أين أنا، وشـردت عيناه، وران الصـمت. وسألنى فـيم قدومى إلى القـاهرة، وشردت عيناه، وران الصمت. وشعر «أبو الوفا» بحرجى، فأخذ يحدثنى، و«سيد قطب» يسمع، وكأنه لا يسمع، وتذكـرت ما كتبه يوماً «طه حسين» عن الحكيم إذ قال عنه: «هو غائب كحاضر»، و«حاضر كغائب». ترددت، ثم سألته عن رأيه فى هذه الثورة، فابتسم وقال لى:

- هنا، تحت هذه الشـجرة، كـان الضـباط الأحـرار يعقـدون بعض اجتماعاتهم معى، فى فترة التمهيد للثورة.

كانت الحديقة واسعة، يحـيط سورها بها، وبهذا البيت الريفى المطلى الجدران، المنزوى فى جـانب يسير منهـا، وكانت عيناه قد عـادتا للشرود، وكـأنه لا وقت فى الزمن، ولا حسـاب لمرور اللحظات، وكـأن الزمن هو ذلك الزمن الذى فى داخله وحده، رآنى أجـوس بعينى فى الحديقـة، فقال لى ضاحكًا:

- لست غنيا، كان معى ألفا جنيه، وهذا البيت كان لمأذون حلوان، . مساحته نـصف فدان، اشتريته منه بكل ما كان معى، وفى حـديقته أقضى ليلى، ومكتـبى بجانب هذه النافـذة هناك، الخضـرة تساعـد الكاتب على الكتابة، ألستَ معى؟

وشردت عيناه، كأنما أرهقته الكلمات، أو كأنه اعتاد أن يكتبها، حتى نسى النطق بها، ونهض عائدا إلى البيت، حتى ظننت أننى لم أعد مرغوبا فى بقائى، فهممت بالإنصراف فضحك «أبو الوفا» وقال:

- انتظر سيغود، الوقت فى الليل هنا بلا حساب.

وعاد «سيد قطب»، يحمل مظروفا، أخرج منه صورا، وأخذ يريها لى واحدة واحدة، وكان هو فى كل صورة، وتحت هذه الشجرة، وكانت كلها صورا ليلية أخذت فى أضواء الفلاش، وفى كل صورة كان هؤلاء الضباط الأحرار، وهو بينهم واسطة العقد، وإذ رددت إليه آخر صورة قلت:

- لا أرى بينهم محمد نجيب.

فابتسم وقال، :

- هذا جاءوا به واجهة للثورة، الرتبة العسكرية لها حساب.

وأرانى الصورة التى رددتها مرة أخرى، وأشار إلى جمال عبدالناصر، وقال:

- هذا هو قائد الثورة الحقيقى، يتوارى الآن وراء محمد نجيب، وغداً سيكون له شأن آخر.

وأعاد الصورة إلى المظروف، ووضعه على أريكة خضراء مثل أرائك الحدائق العامة، قلت:

- أراض أنت عن هذه الثورة؟!

قال سيد قطب:

- لا أجد فى تطور أمورها ما يريح، فهؤلاء الأمريكان يحاولون احتواءها بدلا من الانجليز، أتفهم ما أعنيه؟

هززت رأسى، وأطرقت. وسمعت صوته يقول:

- هل تحسّ كشاب أنهم سيفلتون من الاحتواء.

ولم أجد على لسانى ما أجيب به، قلت بتردد:

- هل تحولت عن النقد؟

دهش، وقال:

- من قال ذلك؟

ثم ابتسم وقال:

- الكاتب حين تكون له قضية، يكتب فى النقد، وفى غير النقد، وغايته أن يبعث العافية فى أوصال الناس. الكاتب ليس ناقدا فحسب.

وطالت الجلسة، وطال الصمت. وفرغت أقداح الشاى للمرة الثانية، وانصرفت مودعا، عائدًا إلى محطة المترو، عبر شوارع لا يقطع سكوتها، سوى نباح الكلاب، فى ليلة مظلمة، شاحبة الأنوار، مغبرّة المصابيح.

الأطياف الأربعة:

أمام بائع صحف على رصيف، بوسط القاهرة، رأيت كتابا يحمل عنوان: «الأطياف الأربعة»، ودهشت إذ وجد عليه اسم «سيد قطب»، وأسماء ثلاثة قدرت من ألقابهم إنهم إخوته، اشتريت الكتاب، وجلست على أول مقهى مع الضحى.

كان الكتاب لونا من المذكرات وسيرة الحياة فى مجتمع متخلف، فى قرية نائية من قرى مصر، قدم لى الكتاب حياة الطفولة والصبا لسيد وإخوته، فى عالم القرية، مثلما فعل «طه حسين» فى الجزء الأول من أيامه.

وبدت لى سيرة الإخوة الأربعة، الصبية، أكثر صدقا، وبساطة وواقعية، من أيام «طه حسين». ومن عالم معذّبيه، وعجبت لأن الأسلوب

واللغة، هما أسلوب سيد ولغته، فـهل صبّ قلمه ما كتبه الإخوة فى نسق واحد، أم أنه هو الذى فكر وكتب ما فكر فيه؟ وهل تراه، وحـياته مشتركة مع حياة إخوته، كان يترجم لفترة من الـعمر، لنفسه، ولإخوة يحبهم، فى آن واحد، وهو لهم بمثابة الأب والأم والأخ الأكبر معًا؟.

فيما بعد، لم أعرف من بين الإخـوة الأربعة كاتبًا، عدا سيد، سوى أخيه: محـمد قطب، وكان فى كتاباته، بعد أن تحول سيـد تحوله الأخير، مـثل الصدى للصـوت، والشـارح للمتن، والحاشـيـة للشرح، والهـامش للنص، والذيل للفـصل، كان يردد أفكار أخـيه وربما تكون الفكرة فـقرة، مجرد فقـرة فى كتاب، فتصبح تحت يده كتـابا لأخ ذاب فى أخيه، وقارئ انصهر فى مثله الأعلى، ومن المدهش والعجيب أنه كان يحتذيه فى أسلوبه وألفـاظه، وإيقاع جـمله، حـتى فى هذه الحروف الـممدودة فى الكلمـات الأخيرة من الجمل، أو الفقرات، قبل الحرف الأخير.

وأحزننى أن أعلم، من أحاديث الأدباء فى مـقاهى الأدب، أن «سيد قطب»، يعيش بـرئة واحدة، بها يمدّ جـسده بالهواء، وأنـه ربما بسبب هذه الرئة الوحيدة، يلزم بيته، ويحيا من قلمه، ويغـادر وظيفته باللجنة الثقافية بوزارة التـربية والتـعليم، ويتـرك الأدب إلى الكتابات الإسـلاميـة، ودور الناقد، لدور الداعية، وأنه يوشك على الولوج فى عالم التصوف، أو علم الداعية.

واستبعـدت بينى وبين نفسى، أن يتصوف «سيد»، فـمن يحمل مثل روحه، حتى فى بدن نحيل، ومن يصبح القلم فى يـده الصغير مثل سوط فى يد عمـلاق، لا يلج أبدًا طريقا إلا من الباب الضيق، ومـثله لا يهرب من مشاق الدنيـا وأبوابها الضيقـة، إلى عالم التصوف، وأبوابه الوسـيعة، كفضاء الدنيا.

اللقاء الأخير :

نُشر فى صحيفة أن «سيد قطب»، يلازم فراشه لمرضه بوعكة صحية قد ألمت به، ومع أننى منذ أن سار «سيد» فى طريق غير الذى أخطه لنفسى، وفى درب غير الذى كنا، نحن الأدباء، نسير فيه، فقد قررت الذهاب لزيارته، فأنا أدين له، لم أزل فى روحى بالكثير.

كان أمر «الإخوان المسلمين» قد آل إلى المرشد العام الجديد: «حسن الهضيبى»، وكان «سيد قطب» قد صار، بعد ضرب الثورة للأحزاب بالإخوان، أشهر وألمع كاتب فى صحيفة الإخوان الجديدة «الدعوة». صار كاتبا ثوريا على النهج الإسلامى، تحت راية «الإخوان المسلمين»، ولم يُخف شكوكه عن قلمه، ولا عن الناس، وهى شكوك ظهر فيما بعد أنه كان مصيبا فيها جميعا.

كان يهاجم هذه الاتصالات بين الثورة والأمريكان، ويوشك أن يدعو الناس إلى الانتفاضة ضد ضباطها الأحرار، مثلما كان يدعو الفدائيين، قبل الثورة، للاستدارة إلى ضرب الجهات التى تعوقهم عن العمل الفدائى ضد الانجليز فى داخل مصر، فهذه الجهات هى آنذاك - فى رأيه - العدو الرئيسى، والانجليز سيأتى دورهم بعد ذلك، حين تتوحد الصفوف، وتتطهر أرض الوطن.. ومثلما كان يفعل فى صحفية «مصر الفتاة» تحت عنوان «وراء الرغيف»، ومثلما كان يفعل فى مجلة «الكشكول»، محرضا، فى الاثنين، الناس على المطالبة بالعدالة، لينال الفقراء والمستضعفون حظهم من الدنيا، ويكون لإنسانيتهم حق الأخذ والعطاء.

كان راقدًا على سريره، لاهث الأنفاس، يعانى من برد شديد، ومد لى يده الصغيرة مصافحًا، وهو ينهض بنصف قومة، وجلست بجانبه على مقعد، وقلت له ضاحكا:

- ظننت أن مرضك مرض سياسى.

فقال لى:

- إن شئت الحق، الاثنان معًا.

تذكرت يوما سمعت فيه عن محاضرة له فى قاعة «على مبارك» بكلية الآداب، جامعة القاهرة، فذهبت لأسمعه، يتحدث خطيبا لأول مرة. ورأيت ذلك النحيل البدن، الشارد العينين، الذى يؤثر القول بالقلم، على القول باللسان، خطيبًا مفوّها، وداعية إسلاميا حاضر الذهن، بالآيات والأحاديث، ووقائع التاريخ، يحدث الحاضرين فى القاعة عن طريق الإيمان، وعن عدم فصل الإسلام بين الدين والدنيا، والمادة والروح، والجسد والدولة، مثلما تفعل حضارات الغرب والشرق، ويروى من سيرة حياته (سمعت ذلك بأذنى) أنه ظل ملحدًا أحد عشر عاما، حتى أخذ يكتب كتابه «العدالة الاجتماعية فى الإسلام»، فإذا به يعثر على الطريق إلى الله، ويخرج من حيرة الإلحاد إلى طمأنينة الإيمان، وتسوقه الخطبة إلى مهاجمة الجامعة، فى قلب الجامعة، ويصف أساتذتها بقوله: «جهل يحمل الدكتوراه». عند تلك القولة (الهفوة) شعرت أنه قد صار بينى وبينه بون شاسع.

جاءت شقيقته الصغرى بالشاى، وضعته بيننا، وقلت لسيد:

- ما رأيك فى الاشتراكية؟

فقال لى:

- لا هدف لها سوى العدالة، والإسلام عندى اشتراكى النزعة.

قلت له:

- وددت لو أعرف منك: لم انضممت إلى الإخوان، وصرت لهم خطيبا وداعية؟

فقال لى:

- فى الناس وحوش، ولا يُوقف وحشيتهم بالوجدان سوى الدين، ولا يجرِّئُ الضعفاء عليهم سوى الدين.

فهمت فى تلك اللحظة نزعة المصلح الاجتماعى المثالى عند «سيد قطب»، وسرّ اختياره لهذا الطريق. رويت له كيف أننى كنت عضوا مغموراً بالإخوان قبل سنين، وكيف بكيت يوم مات مرشدهم «حسن البنا»، وكيف تركت الإخوان، حين جلست على رصيف محطة للسكة الحديد، أقرأ فى كتاب «علم النفس التكاملى» ليوسف مراد، فى ظل شجرة رطيب، فى عز الظهيرة، وجاء قائد من قادة الإخوان، وجذب الكتاب من يدى، وإذ قرأ عنوانه، طوّح به، ودوت يده بصفعة على خدى وأذنى، وقال لى:

- أتقرأ هذه الكتب، وتترك كتاب الله؟

ابتسم «سيد» بحنو، وقال:

- ولذلك تركت الإخوان؟

قلت:

- أجل، هذا التطرف، والكراهية لعلوم الدنيا، لا أطيقها من أحد.

فقال لى:

- إنهم شباب ينقصهم الكثير من المعرفة بأمور الدين، وروح الدين، وغاية الدين.

ولم يفلح يوما «سيد» فى إعادتى إلى «الحظيرة»، ولم أتوقع منه أن يكون فى يوم ما، داعية لهذا التطرف العنيف، فى كتابه الرهيب: «معالم

على الطريق». وكـأنه كان يشـعر أنه سيـودّع الدنيا، شـهيـدًا، بعد حين، ويستعجل الشهادة.

كثيـرًا ما كان يخالجنى الشك فى صلتـه بالعقاد، فأسلوب سيـد فيه لمسات الاحتذاء للعقاد.

روى لى سيد ذكرى مريرة، بدا لى وهو يرويهـا كأنها لم تعد تحزنه، أو تعنيه فى شىء، قال لى وهو يبتسم:

- كنت له تلميذا محبا، وكنت أقـدم له كتبى، فيثنى على، ويقربنى منه، حـتى طلبت منه ذات يوم أن يكتب مـقدمـة لكتاب لى، يقـدمنى به للناس، فأبى ذلك على نفـسه وعلى، وشعرت بالغـيظ، حين أثر أن يقدم لكتاب «بروتوكولات حكماء صهيـون» لخليفة التونسى، ولا يقدم لكتابى، فجفوته وجفانى، وهجرت مجلسه.

سألته.

- أى كتاب كان؟

فقال لى:

- ليس ذلك مهما الآن.

وآثر سيد الصمت فى هذا الموضوع. لم ألح عليه، ولكننى فكرت أنه ولابد كان واحدا من كتـابين: «التصور الفنى»، و«مشاهد القـيامة»، وهما موضوعان يجدر أن يكتب فيهما العقاد، أيكون السبب هو غيرة الأستاذ من تلميذه الموهوب؟ أم يكون سبب الـرفض والجفوة حدة القلم، وتمرد الروح فى كتابات «سيد قطب»؟

شُقّت صفوف الإخوان بعد ضرب الأحزاب، وإلغاء الدستور، وحل البرلمان، بإثارة اتجاهين داخل صفوف الإخـوان، أحدهما ضد الآخر، اتجاه

الدعاة من خريجى الأزهر، واتجاه الدعاة من خريجى الجامعات الحديثة، وكان «سيد قطب» علم الأعلام فى هذا الاتجاه الأخير.

وصدر كتاب «معالم على الطريق» لسيد قطب، وقد حلت جماعة الإخوان، وجرت المحاولة لاغتيال عبدالناصر، حقيقةً كانت هذه المحاولة أو تمثيلا، وألقت الثورة القبض على مفكرى جماعة الإخوان، وفى طليعتهم «سيد قطب»، و«عبدالقادر عودة»، ودام سجنهما سنين معدودة، حتى شُنقا، وودّعا الدنيا شهيدين، لم تشفع لهما كمفكرين شهيرين، برقيات الدنيا، ولا شفاعات حكام الدول الإسلامية أجمعين.

مازلت أذكر يوما جلست فيه مع الناس، بمقهى، ونحن ننصت إلى محاكمة الثورة (فى محكمة الشعب) لقيادات الإخوان، وإذ جاء الدور على «سيد قطب»، فوجئت به، عبر الأثير، يتكلم، هو النحيل البدن، ذو الرئة الواحدة، بقوة، لا حساب معها لخوف من ضرب أو تعذيب، قبل المحاكمة، أو بعد المحاكمة، يتحدث بصفاء مدهش، إلى قاضيه، وقد كان واحدا من صفوف الثوار الذين يجتمعون عنده فى بيته، فى الليالى الحارة، والليالى الباردة، يتحاورون، فى أمور التمهيد للثورة، والإعداد لها، ولقد أرانى «سيد» يوم زرته أول مرة، صورة لهما، كانا يجلسان معًا، ويأكلان معًا (القاضى والمتهم) دون أن يدور لهما بخاطر، أن أحدهما سيكون ضحية لكلمة ينطق بها صاحبه.

وما زلت أذكر يوم قابلت شقيقه «محمد» وكنت قد أصدرت أول مجموعة قصصية لى، وأهديتها لسيد فى سجنه، فأخذها إليه، فأخذها منه «سيد»، وقد أعاد إلى «سيد قطب» الغلاف الداخلى الذى خططت بيدى الإهداء عليه، وحمل محمد الورقة إلىّ قائلا لى:

– سيـد يقول لك: إنه لاينـبغى أن ينالك أذى بسـببى، فـمزق هذه الورقة بيدك أنت.

أشفق «سيد» أن يمزق هو الورقة بيده ولا أعلم، فأقع ذات لحظة أسير الهـواجس والمخـاوف والظنون، وأظـل أترقب، وقـد كـان ذلك يمكن أن يحدث لى، إثر إعلان الحكم عليه بالموت شنقًا.

فارس الدائرة المشئومة

- ١ -

فى سنوات الثلاثينيات، كان التكوين الثقافى، وكانت بواكير الإنتاج القصصى لموجة جديدة من كتاب القصة المصرية القصيرة والطويلة، موجة أكثر عروبة، أو أكثر مصرية، وأصالة من الموجة السابقة فى حقل القصة، بعد أن عبدت لها بواكير الرواد الطريق فى العقدين السابقين: المازنى، وهيكل، وجورجى زيدان، وعيسى عبيد، وطاهر لاشين، وجمعة، وغيرهم، وكانت حركة «أبوللو» الشعرية فى أوجها، وجيل الرواد يزداد خصوبة: إنتاجا وفكرًا، فى الإبداع والدراسة.

كانت الحركة الفكرية تناقش اتجاهاتها بين الأصالة والمعاصرة: الاتجاه الإسلامى، والاتجاه القومى العروبى، والاتجاه الإقليمى المحلى، والكل، من يومها، فى حيْص بيْص، حيال حضارة الغرب المادية الحديثة، بنظاميها الرأسمالى، والاشتراكى، بين نافر، ومؤيد، وموفق للرؤوس فى حلالات الفكر، وجازم بالتحريم فى لقاءات الشرق والغرب، والمادة والروح.

وفى هذا الجو الفكرى العاصف، والزاخر، والكل يبحث عن فلسفة وهوية، كان التكوين الثقافى لأعلام الموجة الجديدة من كتاب القصة المصرية القصيرة والطويلة، وصار أبرزهم فى سنوات الثلاثينيات، متوزعا بين

الاتجاه فى القص إلى موضوعات التراث التاريخية، العربية، والفرعونية والإسلامية. العريان، وأبو حديد مثلا استغرقتها موضوعات التراث الإسلامى والعربى. ومعهما كان «باكثير». و«السحار»، وكان كلاهما عضوا بلجنة النشر للجامعيين، مع «سيد قطب»، و«نجيب محفوظ»، و«عادل كامل»، والأخيران شدتهما إليهما فى البداية، موضوعات التراث الفرعونى، فكتب «نجيب» ثلاثيته الفرعونية، وبينها: «رادوبيس»، و«عبث الأقدار، وكتب «عادل كامل» روايته «ملك من شعاع».

وكان هذان الاثنان أكثر انفلاتا بين أعلام موجتهم، من حقل التراث عامة، فسار «عادل كامل» بروايته «مليم الأكبر» فى طريق جديد، طريق المحلية المصرية العصرية، ومثله فعل فيما بعد «نجيب محفوظ» حين كتب «خان الخليلى»، بعيداً عن موضوعات التاريخ والتراث، والمعالجة القصصية المباشرة لهما.

وكان «عادل كامل»، أحد الوجوه القليلة التى وعتها ذاكرتى بين أعلام هذه الموجة الجديدة من القصاصين.

ضباب ورماد:

فى أواخر الأربعينيات. كنا ثلاثة نرتاد المكتبة العامة بحى «المختلط» بمدينة المنصورة، كانت المكتبة، فيما مضى استراحة لإحدى أميرات القصر الملكى على شاطئ النيل، وكانت لهذه الاستراحة درجات تصل إلى مجرى النهر، يرسو عليه قارب الأميرة، وحلقات حديدية يشد إليها قاربها، وصارت الاستراحة فى العهد الملكى مكتبة للمدينة، تتبع دار الكتب المصرية فى «باب الخلق» بالقاهرة، واحدة من سبع وعشرين مكتبة تابعة لدار الكتب، فى مصر الكبرى، وعواصم مديرياتها.

كان قيمّ المكتبة هو «الشيخ أمين»، كان رجلاً طيبا يعشق الثقافة، ويحب روادها المدمنين للقراءة، وبينهم كنا نحن الثلاثة: «عبدالجليل حسن»، و«أبو المعاطى أبو النجا»، وأنا. وبلغت علاقاتنا بالمكتبة، وبقيّمها «الشيخ أمين»، أننا كنا نتردد عليها فى أوقات عملها، عدا يوم الجمعة فى الصباح، وفى المساء، وصرنا بين مساعدى «الشيخ أمين»، نتجول فى صالات الكتب الداخلية بها، بين دواليب تحمل ثلاثين ألف كتاب، فلم يكن نظامها نظام المكتبات المفتوحة، وننتقى لأنفسنا ما نقرؤه، ونجلب للرواد ما يريدونه من كتب، حين يكون المساعد الوحيد للشيخ أمين غائبًا، وكثيرًا ما يتغيّب، مطمئنا إلى وجودنا دائمًا.

وقعت عينى على صف لأعداد مجلة «المقتطف»، رحت أتجول بين صفحاتها أياما، وقرأت فيها بين ما قرأته، عملين أدبيين هامين للغاية: أحدهما كان محاورة أدبية ونقدية مترجمة، حول الإبداع والنقد، اشترك فيها ثلاثة: كان أولهم ناقدا أدبيا، والثانى عالم طبيعة، والثالث عالم رياضة هو «اينشتين» صاحب النظرية النسبية، وكنت قد قرأت فيها كتاب «نظرية النسبية العامة» لمشرفة، وفهمت ما كتبه مشرفة عنها، لكن كتابه الآخر عن «النسبية الخاصة» كان مليئا بالمعادلات الرياضية، فعزّ علىّ التواصل معه، ودهشت لما قرأته فى المحاورة، فها هو ذا اينشتين، وصاحبه عالم الطبيعة، يفهمان عن الإبداع والنقد، أكثر مما يفهمه ناقد الأدب.

العمل الهام الآخر كان قصة لعادل كامل، تحمل عنوان «ضباب ورماد»، ولم آلف على صفحات أعداد المقتطف نشرها لقصة، ولقصة مؤلّفة، ولكاتب مصرى، كانت القصة قصيرة طويلة، وتستغرق فيما أذكر أكثر من عشرين صفحة من صفحات عدد مجلة المقتطف الذى نشرت به، قرأت القصة مبهوراً، مسحورا، لاهث الأنفاس.

كانت القصة مغامرة روحية ونفسية، لفيض من المشاعر والأحاسيس، لا حدث فيها يحكى، عالما متتابعا من الصور والرؤى، لا تخلو من دفق وجودى، وتحديق فى الداخل، كما ينطبع عليه العالم الخارجى، واللغة فيها لغة جديدة، وفريدة، فى القص القصير الطويل، ولاعهد لى بنصاعة مثل نصاعتها، والصور باهرة التكوين، والزمن فيها يتداخل بانسياب فى كل زمني واحد، والمشاعر حرة طليقة، كما الطير فى السماوات.

وفيما بعد، إذ وفدت إلى القاهرة فى الخمسينيات، واتسعت دوائر قراءاتى للمترجمات، أدركت صلة هذا اللون من القص بعوالم جويس، وفرجينيا وولف، وبروست، وفيما بعد، فى الخمسينيات تذكرت أن تاريخ نشر هذه القصة بالمقتطف، كان فى مطلع الثلاثينيات، وحدثت نفسى أن «عادل كامل» بهذه القصة، كان رائدًا حقيقيًا، وأنه كان سابقا لزمانه وأوانه، وحزنت لتوقفه عن القصّ.

ولقد استغرقت القصة المصرية زمنا، حتى بدت لاتجاهها الفنى إطلالات فى قصص قصّاصى الستينيات، مجرد إطلالات لا ترقى إلى مستوى «ضباب ورماد» لغة، وبناء، وصورا، وعالما طليقا فى الزمن والمشاعر، وأشك أن واحدا منهم قد قرأ هذه القصة، القديمة العهد، التى لم تنشر فى كتاب.

مليم الأكبر :

فى القاهرة، فى سنوات الخمسينيات، قرأت، للمرة الأولى، رواية «مليم الأكبر» لعادل كامل، كانت سياقا فنياً آخر، غير سياق «ضباب ورماد» شحنة من الواقعية والعنفوان، حدثت نفسى أن هذا كاتب حقيقى، له روح، نيتشوى النزعة فى اختياره لموضوعه، وفى تجربة روايته، بل وفى

شخوصه ولغته، وحوارات ناسه فى عالم روايته. كاتب حقيقى له عالم واقعى خاص، يفيض بروح الدراما، بين فنانين ضائعين، فى جيل ضائع، فى «غرف مقبضة»، فى حارة شعبية ساكنة، ثابتة العادات، رتيبة الحركة.

عدت أقرأ مقدمة «عادل كامل» بين يدى الرواية، القوة فى المقدمة، هى نفسها التى وجدتها فى الرواية، اللغة الطليقة، والإرادة الحرة المتحدية، التى تريد خلق العالم من جديد، وإعادة صياغته، هى هى التى لناسه فى الرواية.

كان عادل كامل قد كتب هذه الرواية عام ١٩٣٦، ولم يتح له نشرها لأول مرة فى كتاب، لأسباب لا أعلمها (وقد كان عضوا بلجنة النشر للجامعيين) إلا فى عام ١٩٤٣، ولم تنشر فصوله، فى «الرواية» (الملحق القصصى لمجلة الرسالة الزياتية) التى كان ينشر بها «نجيب محفوظ» أقاصيصة الأولى، وكان «عادل كامل» قد تقدم بهذه الرواية لينال جائزة «مجمع فؤاد الأول للغة العربية» (مجمع اللغة العربية الآن)، وأبت اللجنة فى تقريرها أن تمنح هذه الرواية الجائزة، وقد منحها المجمع لرواية «لقيطة» لمحمد عبدالحليم عبدالله (ربما لم يكن ذلك فى نفس السنة).

وعجبت لذوق أعضاء المجمع، فلقيطة كانت الباكورة الأولى لمؤلفها، وكانت مليئة بالسجع والمحسنات البديعية الأخرى، وكان عالمها مليودراميا يستدر العواطف فى استجداء، وتبدو لغتها ألفاظا وصورا وتراكيب كأنها خارجة لتوها من معطف «المنفلوطى» و«الرافعى» و«الزيات، غارقة فى قيود النثر الفنى غرق الشعر القديم فى قيوده، وثار «عادل كامل» فى مقدمته ضد المجمع ثورة فنية عارمة.

شعرت بالحزن لعادل كامل: كيف لايدرك آنذاك أن عليه أن يسبح فى مياه أخرى غير مياه المجمع (آنذاك)؟ أو كيف تستدرجه جائزته، أو يخدع

بمعنى هذه الجائزة لكاتب مثله؟ وأيقنت أنه أخطأ التقدير لنفسه، ولروايته، وقدرت أنه، ربما لهذا السبب، وغيره من الأسباب التى لا أعلمها، توقف عن كتابة القصة، وكان المثقفون يتحدثون آنذاك عمن توقفوا عن القصّ، وعن الشعر، وعن التأليف المسرحى.

وأدركت أن عادل كامل، بروايته «مليم الأكبر» وفى التاريخ الذى كتبت فيه عام ١٩٣٦، كان سابقا فى ارتياد الإبداع القصصى، فى تيار الواقعية النقدية، لنجيب محفوظ صاحب «بداية ونهاية».

ففى الوقت الذى كتب فيه عادل كامل قصة «ضباب ورماد» ورواية «مليم الأكبر»، كان نجيب يكتب أقاصيصه الأولى على صفحات «الرواية»، بين عامى ١٩٣٢ و١٩٤٣، ويجهد للاقتراب من لغة القص، وبساطة اللغة، والواقعية فى قصص أكثرها يعد من باب المفارقة، والنكتة، قصص بالعشرات، لم يختر منها نجيب سوى عدد محدود، نشره فى مجموعته الأولى «همّس الجنون». ورفض نشر سائرها فى مجموعات أخرى.

ملك من شعاع :

بين دعاة الإقليمية، أو المحلية فى الأدب، فى سنوات الثلاثينيات، كان «عادل كامل» و«نجيب محفوظ»، وليس لأحدهما، فيما أعرفه، مقال فى هذا الصدد، لكن نزوعهما إلى هذا الاتجاه كان واضحا، فيما أبدعاه من روايات.

«نجيب محفوظ» كتب ثلاثة أعمال روائية فى التاريخ الفرعونى، بينهما: «رادوبيس» و«عبث الأقدار». وعادل كامل كتب روايته التاريخية اليتيمة «ملك من شعاع» عن اخناتون الملك، موحد الآلهة فى إله واحد، هو: «الشمس».

ولأن الدعوة للإقليمية، بمعناها الخاص، بالتراث الفرعونى، وبإمكان ربط الواقع العصرى لمصر، بحضارة بادت وانقطعت فكرا، ولغة باللغة القبطية، ثم باللغة العربية، وبالحضارة اليونانية، ثم الرومانية، ثم العربية الإسلامية، فقد أخذت هذه الدعوة الإقليمية معنى جديدا، عند «نجيب محفوظ»، و«عادل كامل»، معنى المحلية، المصرية، والعصرية، فكانت روايتا «مليم الأكبر»، و«بداية ونهاية».

وإذ توقف «عادل كامل» بعد «مليم الأكبر» عن القص استمر «نجيب محفوظ» فيه، فقد أضاف «نجيب» إلى نزعته المحلية المصرية العصرية، وفى ثنايا رواياته، معنى «الإيمان» بصورته الإسلامية، الصوفية، التى تمثلت فى بعض شخصياته، وراح يضفرها، فى ثلاثيته، وحرافيشه، وحاراته، جنبا إلى جنب مع: زيطة، والموظفين، والفتوات، واليساريين، والوفديين، والإخوان، وأحسب أن «عادل كامل» لو استمر فى القص، لانتهى به الأمر إلى الطريق نفسه، وإن تغيرت الرؤية، وتغيرت التجارب، وتغيرت طريقة المعالجة والتعبير.

عالم واحد، هو عالم «ملك من شعاع»، و«رادوبيس»، و«عبث الأقدار» لكن رواية «ملك من شعاع»، تبدو لى كرواية، سامقة روائيا، قصًا وفنّ قص، على فرعونيات نجيب محفوظ، ويزداد أساى لفقد القص المصرى، لصنو ونظير لنجيب محفوظ، وما قدرت عمق العلاقة بين الاثنين خاصة، وهما أبناء حقبة واحدة، ورفيقا عمر، على كثرة لقاءاتى بنجيب فى مقهى الأوبرا، حتى أتيحت لى الفرصة للقاء «عادل كامل».

الدائرة المشئومة :

عام ١٩٥٩، عملت شهورا كصحفى بصحيفة الجمهورية. كان «سعد الدين وهبة»، كاتب المسرح، يعمل بالصحيفة نائبا لرئيس التحرير، وكان

يشرف على تحرير صفحة منوعة مثيرة بالصحيفة، الصفحة الخامسة بالتحديد، عرضت عليه إدارة حديث صحفى مع «عادل كامل» صاحب «مليم الأكبر» والتى صار بها شهيرا بين كتاب القصة فى مصر، ولم أكن قد كتبت سوى أربع قصص أو خمس، نشرتها بمجلة «الآداب»، وأذيعت من البرنامج الثانى بإذاعة القاهرة، لكن معرفتى بعالم القصاصين فى مصر كان طيبا، وافق سعد على الفكرة، وكنت أعرف أن «عادل كامل» قد صار محاميا منذ منتصف الأربعينيات، وذهبت للقائه.

كان مدخل مكتبه مليئا بشوانين الملفات والبطاقات والموظفين والمحامين. وخرج من باب جانبى رجل ربعة جاوز الأربعين ببضع سنين، مصرى الوجه، أسمر، راعنى انحناؤه وهو يصافحنى، وراعنى هذا المنديل الأبيض الذى يدسّه فى كم يسراه، مثل لورد انجليزى، وصحبنى إلى مكتبه الخاص.

فاتحته فى سبب زيارتى له، فابتسم وقال لى:

- دعْنا من الحديث، فهذا أمر نسيناه.

عدت أعرض ما جئت أسأله عنه، ولا أعرف تماما كيف تحول الموقف بيننا، صار المسئول يسأل، قال لى:

- أهم من ذلك أن نتعرف ببعضنا أنا وأنت. قد نصير صديقين. قدومك إلىّ يجعلنى أشعر أنك قرأت لى «مليم الأكبر»، وأنك تمارس كتابة القصة.

قلت:

- وقرأت رواية «ملك من شعاع»، وقصة «ضباب ورماد».

وكأنما مسّت فيه إشارتى لضباب ورماد ذكرى خاصة. انفتح صدر

«عادل كامل» لى. خلع جاكتته، وألقى بمنديل كمه جانبا، وشمّر قميصه إلى منتصف ساعديه، وقال:

- الآن نتكلم، أريد أن أقرأ لك.

حدثته عن نفسى، وحدثنى عن نفسه، مؤكدا بين حين وآخر أننا نتعارف، وأن ما يقوله ليس للحديث الصحفى، وأرانى صورة لبناته الثلاث. وباح لى أن «نجيب محفوظ»، لا يدخل أحداً بيته، فيما يعلم، سواه. وباح لى بأن «نجيب» لا يطلع أحدا قبله، على قصة له، إثر كتابتها بالآلة الكتابة، وأرانى رواية «أولاد حارتنا» الموضوعة على مكتبه (قبل أن تنشر مسلسلة بالأهرام، وقبل أن تصدر فى كتاب ببيروت (إثر اعتراض الرقابة الدينية على موضوعها). وباح لى بأنه قدم لنجيب خدمة العمر، منذ أن عمل هو محاميا أتاح له أن يكتب سيناريوهات لأفلام السينما، فغطى بأجوره عنها نفقات أعوامه كموظف بالأوقاف، وأتاح له ذلك فراغا يوميا، يكتب فيه قصصه، كان سينفقه فى القلق على موارد المعيشة الشهرية، وفى العمل الإضافى بأى مكان، وضحك «عادل كامل»، وقال:

- أنا سعيد حقا، لأننى أتحت له هذه الفرصة، أحدنا على الأقل قد بقى فى ساحة القصة، يكتب قصصا.

رحت أسأله عن رأيه فى القصاصين اللامعين الذين تشهدهم ساحة الإبداع القصصية فى مصر: «محمد عبدالحليم عبدالله»، و«إحسان عبدالقدوس»، و«يوسف السباعى»، و«ومحمود البدوى»، وسواهم من المعروفين، وما ظننت أنه يجد وقتا أو رغبة لقراءة أحد من هؤلاء القصاصين الجدد، فى صحيفة «المساء» أو فى مجلة «روزاليوسف»، ولم يخف رأيه فيمن سألته عنهم، ولم يتحرج فى البوح به، ثم قال لى:

- هؤلاء صنعوا أنفسهم بالإعلام، لا أستثنى منهم سوى «محمود البدوى» فى بداياته الأولى، ويضيعون أنفسهم وأوقاتهم بكتابة القص.

كنا قد قضينا ساعتين من الثانية ظهرا، حتى الرابعة عصرا، ونسى كلانا حاجته إلى الطعام، لاشىء سوى الحديث وفناجين القهوة، سألت «عادل كامل»:

- لم توقفت عن كتابة القصة؟

قال لى:

- إثر موقف مجمع اللغة من روايتى أدركت أنه لا قبل لى بإضاعة الوقت فى مناطحة الصخر، وأدركت أننى لن أعيش من قلمى ككاتب، وأن قلمى لو صار فى يدى سيفا، ولا ينبغى له أن يكون فى يد الكاتب، سوى سيف، سيجعلنى أعانى أكثر، مشقة مجرد العيش. قررت فى تلك اللحظة، أن أكون محاميا، وهأنذا كما ترى، ميسور الحال، الشوانين ملأى بالملفات والبطاقات، شركات كثيرة بقلب المدينة قضاياها بمكتبى هذا، وأنا بعد محامى الفنانين المقيمين فى مصر، والذين يفدون إليها من الفنانين، أو يخرجون منها، وبفضل معرفتى بهؤلاء الفنانين، أتيحت الفرصة لنجيب ليكتب سيناريوهات للسينما، ويواصل كتابة قصصه.

ثم أكد علىّ قائلا:

- ما قلته تعارف، وليس للحديث، اسمع.

وطلب منى أن ألقاه غدا، ومعى قصص أختارها له، ليقرأها لى، ولنزداد معرفة ببعضنا البعض.

فى اليوم التالى، حملت له ثلاث قصص، ولم يكن بمكتبه، فرحت أتجول بين الكتب المجلدة، فى دواليبها الزجاجية التى تحيط بالجدران الأربعة، لا يقطعها سوى فراغى النافذة والباب، كانت كلها كتبا فى الأدب، بلغات ثلاث، وليس بينها كتاب واحد فى القانون، وجاء «عادل»، وجلسنا، وواصلنا ما انقطع من الحوار، وانصرفت على موعد فى الغد معه.

قال لى فى لقائنا الثالث:

- قرأت قصصك، ولا ينبغى أن تتوقف عن كتابة القص يوما، مثلما فعلت أنا.

أسعدنى ما سمعته منه، وقلت له:

- أود أن أسألك سؤالا: أأنت حقا سعيد بما أنت فيه، ولا تحن إلى الكتابة؟

قال لى:

- سأقول لك الحق، لست الآن، ومنذ سنين، سعيدا بما فعلت، وإنى لشديد الحنين للكتابة، وحاولت العودة إليها، وقد استقرت لى الأحوال. كتبت جانبا من رواية لى بعنوان: «الدائرة المشئومة»، موضوعها عن هذه اللقاءات التى كانت تجمعنا، أنا، ونجيب، والسحار، وباكثير، تحت قاعدة تمثال، بآخر كوبرى قصر النيل، لقاءات ضائعة، حائرة، لجيل ضائع، لكننى اكتشفت أن قلمى قد صدئ، وأن روحى لم تعد روح كاتب، فقدت الدُّربة. احذر أن تفقدها يوما. الروح تتحفز وتتوهج بالممارسة. والقلم لا يجف مداده بالكتابة.

وزفر «عادل كامل» بأسى ساخر، ومرارة ضاحكة، وقال:

- سبقنى نجيب، وتطور، وأنا حيث توقفت، ولذلك لم أكمل روايتى، وأزحتها جانباً.

ثم قال لى:

- انقذ نفسك من العمل بالصحافة، وبسرعة، لاتعمل شيئًا سوى كتابة القصة، سأتيح لك الفرصة التى أتحتها لنجيب، وتعيش منها، وتفرغ معظم وقتك «لقصصك» والبحث عن تجارب لقصصك.

وضحك، وقال:

- سوف أعـرفك أيضًا بأجواء القـاهرة التى لاتعـرفها، ويعـز عليك الدخول إليها.

قلت بذعر:

- لكننى لم أدرس السيناريو.

قال لى مؤكدًا، وهو يقدم لى سيناريو لفيلم:

- خذ، هذا سـيناريو فيلم «بـاب الحديد»، اقرأه. واصنع مـثله، لن تبحث عن قصة للسينما الآن. قصتك «يهـوذا والجزار والضحية» لغتها لغة صورة، وذلك مـاتريده السينمـا، ولا تحمل هم السينـاريو، المنتج والمخرج سيرحبان به، وابدأ هذه القصة.

قلت:

- سأحاول. لكن..

قال لى ضاحكا:

- الرغبـة فى نشر حـديث معى تسـيطر عليك، كـما تشـاء، اكتب الحديث.

قلت:

- سأطلعك على ما سأكتبه.

فقال لى:

- لا ذاكرتك طيبة، وأنا واثق بك، ولا تتـحرج فى نشر ما قلته عن أحد. وكتـبت الحديث، ونشرته، وثار المكتوب عنهم، ورفـضوا الدخول معى فى أى حوار تعليقا على حديث «عادل كامل» لى.

وتهربت من لقاء «عادل كامل» مرة أخرى لقاء خاصا خفت من ضغطه على لأكتب السيناريو، طوال عشر سنوات، خفت من تأثير كتابة السيناريو على كتابتى للقص. فقد كنت، ما أزال، فى تقديرى لقصىّ، غض العود، وخفت أن أدخل بقصصى فى دائرة مشئومة أخرى.

أقل من عشرة جنيهات :

أغرى الشاعر «فاروق شوشة» بالحديث الذى نشرته مع «عادل كامل»، وكان «فاروق» يعمل مذيعا بإذاعة القاهرة، ويقدم برنامج «مع النقاد» من البرنامج الثانى، واتخذ «فاروق» قرارا بإذاعة قصة «ضباب ورماد» من إذاعة البرنامج الثانى، وتقديم حلقة من البرنامج مع «عادل كامل»، وأذيعت القصة كاملة، وزاد وقت إذاعتها عن ساعة وربع ساعة، ولم يكن وقت الإرسال بالبرنامج يزيد آنذاك عن ثلاث ساعات. وأذيعت الحلقة فى حوار مدهش من الطرفين. السائل والمسئول. وما يزال نصّ الحوار الذى نقله «فاروق»، من الشريط المسجل تحت يده، مع نصوص لحلقات أخرى مع صفوة من الأدباء فى تلك السنوات ينتظر النشر فى كتاب.

وجاء موعد صرف المكافأة الإذاعية لعادل كامل عن قصة «ضباب ورماد»، وعن حديثه الحوارى فى برنامج «مع النقاد»، وسعى «عادل كامل» إلى الإذاعة، ربما حرجا منى ومن فاروق، ليتسلم مكافأته، وصحبه الساعى إلى وحدة العقود بين الدورين الرابع والعاشر، وفوجئت أنا وفاروق، بعادل كامل، يوقع إذنى الصرف عن القصة، والحديث الحوارى، ويعطيهما لمصطفى الساعى، قائلا له: اصرف المكافأتين، وخذ قيمتهما لك.

ولم يضطرب عرق واحد، فى وجه «عادل كامل»، كانت المكافأة عن قصة «ضباب ورماد» جنيهين وستة وعشرين قرشا من جنيهين ونصف، بعد الاستقطاعات، وكانت المكافأة عن الحديث الحوارى لمدة ساعة، فيما أذكر، خمسة جنيهات وكسور من القروش والملاليم، بعد الاستقطاعات، فالحديث الحوارى أجره فى الإذاعة، مهما كان وقته، ثلاثة أرباع مكافأة الحديث غير الحوارى، وكلاهما لا يحسب له وقت فى تقدير المكافأة أكثر من عشر دقائق.

وغرقت فى العرق حياء من «عادل كامل»، فأنا الذى جررته، هو الذى استقرت به الأحوال، وتوقف عن الكتابة هربا من مواجهة مثل هذا الموقف، وما أحسب أن حال «فاروق» آنئذ كان أفضل من حالى، ونظر إلى «عادل كامل»، وأنا أسير معه إلى المصعد وقال لى:

- متى ستريح نفسك وتكتب سيناريو لفيلم؟!

- ٣ -

فرسان الحرافيش:

أعرف، عن بعد، الصلة الوثيقة، بين رفقة جماعة «الحرافيش»، وأعرف أنها ضمت فرسانا للكلمة، وللريشة، وللصورة، شعرا، وقصا، ولوحة، وأفلاما: عادل كامل، ونجيب محفوظ، ومحمد عفيفى، وأحمد مظهر، وصلاح جاهين، وتوفيق صالح، وجميل شفيق، ينقصون واحدا بالفقد (أطال الله أعمار الأحياء ومتعهم بالصحة)، أو يزيدون واحدا بالاستلطاف فى عضوية هذه المجموعة، ولقاءاتها الأسبوعية الحرة، فى بيت أو فى لا بيت، لكن ما يستوقفنى فى هذه المعرفة، هى هذه العلاقة الأبدية الحميمة بين «عادل كامل» و«أحمد مظهر». ولعل ذلك راجع إلى

روح الفروسية المثقفة لدى كليهمـا، فأحمد مظهر كان من فرسان القفز (إذا لم تخنى الذاكرة)، و«عادل كامل» كان من فـرسان الكلمة، القادرين على قول: لا، حتى للأدب نفسه.. وبين عادل كـامل ونجيب محفوظ من جهة أخرى، وهى عـلاقة تذكرنى بهـذه العلاقة الإنسانـية والفكرية بين «إنجلز» و«ماركس»، ومع فارق التشبيه، فعادل كامل مثل انجلز فى رعايته لماركس، ظل راعيا، وهو الأصغر سنا لنجيب مـحفوظ، لقد تبنى أحدهما الآخر، ووجد فيه استمراره وبقاءه، وتحقيق ما انشغل به، أو شغل نفسه عنه، وكم أتمنى لو أن حرفوشـا من هؤلاء الحرافيش العظام، أرخ لحرفشـتهم النبيلة، ولجزيرة «الحـرافيش» الوهميـة التى أرزوا إليها، وأنسـوا لها، فى مجـتمع أصم، ومدينة شديدة الصمم.

فاجـأنى «جمـيل شفـيق»، وقد نهض بدور إعـلامى مفاجـئ لعادل كامل، بقصص ثلاث قـصيرة له، حملها إلىّ تباعا، فـهو يعلم أننى واحد من المحبـين لعادل كامـل، والآسين لتوقفـه عن الكتابـة، فسارعت بـنشر إحداها فى مجلة «إبداع» مع تقديم سريع (على مـاتيسر)، وأعطيت ثانيتها للصديق «مصطفى نـبيل» فعجل بنشرها فـرحا، وثالثتهمـا «ويك تحتمس» وقد نشرت بمجلة إبداع.

لم يكتب «عـادل كامل» هذه القـصص حـديثا، فـمن الأوراق التى صفـرها الزمن، والتى تحمل ظهـورها نماذج بيانات مـحاكم، ومـحامين، ومحضـرين، أدركت مع أنها لا تحمل تاريخ كتـابتها، أنها كـتبت مبكرا، وقبل أن يتـوقف عادل كامل عن الكتـابة، وفى بداية عمله بالمحـاماة وربما قبل تخرجه من الجامعة، وحتى لا أنسى هنا، سأذكر أن «عادل كامل» وهو راعى نجيب محفـوظ أصغر سنا من نجيب محفـوظ، ولا أعرف تماما نتائج وأبعاد أمر آخـر، فماذا كان سـيحدث لو أن «عادل كـامل» لم يتوقف عن الكتابة، أو لو أن نجيبا فقد صـديقه الراعى، أو لو أن عادل كامل فقد أمنه

المادى الخاص مع المحاماة، وفقد كلاهما الصلة بالفنانين، وبالسينما، وكل النتائج متوقعة ومحتملة.

وفاجأنى أيضًا صديقى الفنان «جميل شفيق» رسام البقر، والسمك، والطير، والجسم البشرى عاريا بلا رتوش، غريزيا بلا عواطف، فاجأنى بروايتين لعادل كامل، رواية بعد أخرى، فآثرت عرضهما على الصديق «مصطفى نبيل»، وأشهد أنه قد طار بهما فرحا. وأعتقد أنهما وفق معلوماتى من الصديق الرسول «محمود قاسم»، وقد صدرتا معا فى كتاب واحد، بعدد «روايات الهلال».

ثم لم يدعنى «جميل شفيق»، أعتقد أن رصيد «عادل كامل» من الإبداع قبل أن يتوقف عن الكتابة أيضًا، قد نفد، وانتهى، حتى حمل إلى «تباعا» ثلاث مسرحيات طويلة، لعادل كامل، تشهد مثل الروايتين، والقصص الثلاث، أن الحياة الثقافية والأدبية، قد فقدت بتوقف «عادل كامل» عن الكتابة، كاتبا آخر، صنوا لنجيب محفوظ، مثلما فقدت هذه الحياة بتوقف «محمد عفيفى» عن القص، وانشغاله ببابه الصحفى «ابتسم من فضلك» فى «آخر ساعة» فارسا من فرسان القص القصير.

والعزاء اليوم، والفضل، لرفقة «الحرافيش»، ولتلك المصادفة التى جعلت «عادل كامل»، يعيد ترتيب وفرز أوراقه القديمة، والتى جعلت رسام الحرافيش، مندوبا عن الجماعة، فى تقديم هذا الرصيد القديم، لعادل كامل، للنشر، والتى جعلت هذه الأوراق تؤول فى النهاية إلىّ، وإلى مصطفى نبيل، وكلانا بذلك سعيد.

لقد تضاعفت بهذه الأعمال، إبداعات «عادل كامل» الأولى، فصارت تضم مع «مليم الأكبر»، و«ملك من شعاع»، و«ويك عنتر»، و«ضباب ورماد»، أعمالا جديدة، روايتين وثلاث مسرحيات أخرى،

ومجموعة قصص قصيرة، إذا أضفنا إليها قصة «ضباب ورماد»، أى أن إبداع عادل كامل، قبل توقفه، يضم الآن: أربع مسرحيات، وأربع روايات، ومجموعة قصص قصيرة واحدة، اللهم إلا إذا كانت لدى «عادل كامل»، بين أوراقه المهملة، إبداعات أخرى، لا نعلمها، وقد لا يذكرها هو.

ذكر لى «جميل شفيق»، فيما ذكره حين يعود مبهورا، إلى «أتيليه القاهرة» كل خميس، قادما من لقاء «الحرافيش»، أن «عادل كامل» يقول: إنه لا يعرف الآن لماذا توقف عن الكتابة، وأذكره هنا عندما قاله هو لى فى حواره معى عام ١٩٥٩، وبما كرره فى هذا اللقاء الجميل الذى أجراه معه «فاروق شوشة» فى برنامج «مع النقاد» قال: «توقفت عن الكتابة، لأننى سألت نفسى: هل يمكن أن يعيش الكاتب من قلمه، فى مصر؟ فكانت إجابتى هى: لا. وسألت نفسى: هل يمكن أن تكون الكلمة فى يد الأديب فى مصر سيفا، فكانت إجابتى هى : لا. عندئذ قررت أن أتوقف عن الكتابة».

وهكذا رمى الكاتب بسيفه، عامدا متعمدا.

وما يستوقفنى هنا الآن، هو: هل كان ذلك الرمى للسيف صوابا؟ وكيف وجد هذا الكاتب المثقف، الموهوب، الصلب الإرادة، والقادر على القرار والالتزام به، القدرة على مثل هذا القرار، وتنفيذه، دون أن يضعف بعد أسابيع، أو شهور، أو سنين، مخالفا بذلك قوانين الطبيعة بأسرها، فالشجرة إذا توقفت عاما أو أعواما عن الإثمار ستعود إليه فى عام ما، وهل يغنى دعمه ورعايته لصديق عمره نجيب محفوظ، وإخلاصه لرفقة الحرافيش، عن مسئوليته نحو أدبه، وفنه، وعقله المثقف الراجح، المغامر؟

لكن ما جدوى السؤال الآن والحياة الاجتماعية حافلة بالمواقف الشتى، متنوعة الحالات والأحداث.

صاحب العمامة المقدرة

بينى وبين صديقى، صاحب العمامة المقدرة: فاروق عبدالقادر، عشرتان، تقربان فى حياتى، من عمرى بالقاهرة.

عشرة حب لرفيق أنيس كلما جمعنا لقاء، لا تنبو فيه بيننا الكلمات، ولا يشذ الإيقاع، فمعرفته بالتراث مثلى، وأوثق، وباللغة مثلى، وأرحب، وحضوره العصرى مع قبيلة المثقفين مثلى وأكبر، ولذلك جرى العرف بيننا ونحن نضحك أن يقول لى: يا فقى، يا مولانا، وأن أقول له: أنت صاحب عمامة مقدرة، صاحب عمامة بمعرفته العميقة بالتراث، جده وهزله وإن لم يرتدها قط، ولم يكن أزهريا يوما مثلى.

وعشرة احترام لأنه ناقد عنيد، أقصد أنه ملتزم، يقول ما يعتقد أنه حق، فى الكتاب وصاحبه، ودورهما فى الواقع إيجابا أو سلبا، ودائما أراه كذلك الفلاح الذى لم يكنه يوما، يحب الكلمة ويجلها، كما يحب الفلاح أرضه ويجلها، ويحب الإبداع لنفسه ولسواه، مثلما يحب الفلاح زرعه وغرسه وزرع جاره وغرسه، إن أجاده. وهو مثل الفلاح، ولم يكنه يوما، يحرص على تنقية فكره من العبث والتسلية، مثلما يحرص الفلاح على تنقية أرضه من الأعشاب والكلأ، ففاروق يلتفت للظواهر فى الحياة الثقافية، بين الحين والحين، وفاسدها أكثر من صالحها، وشرها أكثر من

خيرها، وطفيلياتهـا المتسلقة أكثر من أشجارها الباسـقة، ونباتاتها النضرة. هو كاتب، مبدع، فى الواقع، ومع الكلمة، وكاتب صريح يطيقه أمثاله من المبـدعين المجـيـدين: فى النقـد وغـيـر النقـد، ولا يطيـقـه الأفـسـال، والشلليون، والإعـلاميون، والمتـسلقون من عـبيد الواقع الراهن، وضـعاف العطاء. ولذلك فأصـدقاؤه قليلون، وأعداؤه كـثيرون، ونادرهم محـبوه، وشائع ألداؤه.

رأيته أول مـرة فى بيت بالمنيل، ولا أذكر أكان طـالبًا عندئذ أم أنه قد تخرج، ولم أعرف أنه قاهرى، وله بيت قـاهرى، وأهل قاهريون، بشبرا، إلا بعد سنين. وعرفته منذ ذلك الحين صوتا ساخنا، وواعدا وصاحب روح وطموح، بعـد هذا اللقاء الأول، والعـابر، مع «محفـوظ عبـدالرحمن». ولأنه لم يكن يحكى عن نفسـه إلا نادرا، وربما حين يسأل، فقد احـتجت إلى وقت لكى أعرف صفحات من فوائت عـمره وذكرياته وتعليمه، وحياة العبارات التراثيـة المفاجئة لى، على لسانه، وهو يعلق شـفاها وكتابة، على قول أحـد، أو أمر من الأمـور، بعبارات تحـمل معهـا، فى الموقف الحى، حضورا زاخرا، ومتألقا.

ثم عرفـته معرفـة أوثق، حين كان مشرفـا مسئـولا عن ملحق مجلة «الطليـعة» الأدبى والفنى، كـاتبًا حريصـا على التنظيـر للواقـع الثقـافى، حرصه على النقد للأعمال الأدبية الجيدة فى المسرح خاصة، ومشرفا يحمل روح الأب، لتقـديم المواهب الشابة الواعدة والجـيدة، على صفـحات هذا الملحق. وبينهم من كـان مجرد وعـد، لكنه كسيـر الجناح، والقلب الرحب يتسع لهؤلاء وهؤلاء، إلا حين يأتونه بعمل ردىء، أو ينشرون مكلمة على أنها قص، أو مسرحية. عندئذ لا يتـردد فى الشجب، والقبول بخسارة من شجبه، وعدائه.

ولم أعرف ناقدا على باب الله، مثل فاروق، يقبل بالحياة، بعيدًا عن «الميرى»، ويسعى من الضيق إلى بركات «الميرى» فلا يختاره له من يملكون مقاليد الأمور، ممن يلعبون على كافة الحبال من اليمين إلى اليسار، خوفا منه وحذرا، فمثله لا يعرف سوى صوت القلب، مثله لا يرضى بغير دور الشريك، وهم لا يريدون سوى الأتباع، والأعوان، وحملة الحقائب، وحاشا لفاروق وأضرابه أن يكون واحدا من هؤلاء. ويضطر فاروق إلى الدفاع عن نفسه وحياته وفكره، بقلمه والرضا بعائد هذا القلم، أو بدون عائد على الإطلاق، فالقليل من الخبز يكفى إذا ما حقق مبتغاه: كلمة الحق عن العمل المبدع وصاحبه، وكلمة الحق عن الواقع الثقافى بزهوره وأعشابه، فهو شاهد حى، وفاعل، على الواقع الحى المعيش، وكتبه كلها، وكتاباته كلها، بالصحف والمجلات، والحوارات القليلة معه هنا وهناك، داخل الوطن الصغير، وخارجه، فى أرض اللغة الكبيرة، شواهد حية على كونه شاهدا حيا، وفاعلا، لن يغفل دوره يوما، ولن يتوقف قط دين المبدعين المجيدين لقلمه، لأنه يطهر لهم الأرض من الأعشاب، ويعطيهم ويأخذ عليهم ما يستحقونه.

ونادرون هم أولئك الذين ظواهرهم مع القلم مثل بواطنهم، إن قالوا فى مجلس، وإن كتبوا فى دورية أو كتاب، والقول واحد هنا وهناك، فى صوت فاروق، وفى خربشات قلمه. فصار مجدًا للكاتب أن يكتب عن إجادته فاروق، وضيقًا للكاتب أن يكتب عن رداءته فاروق، ضيقًا قد يستحيل إلى همز ولمز، وقد يصاعد إلى حرب شعواء، فى المقهى وعلى الورق.

ونادرون، هم أولئك الذين، فى الحياة، لا يعرفون سوى الأبيض والأسود، ويفزعون من الرمادية فى القول، والفعل، حين تحزبهم ضرورة القول أو الفعل، ويصبح مجرد الصمت محالا من المحال، وفاروق واحد

منهم، أعرف كاتب مسرح شهيرا من أعمدة المسرح فى هذا الوطن الصغير، أصدر عملا مسرحيا ونشره كنص، ومُثل هذا العمل وشاهده الجمهور،وأشاد فاروق بعمله هذا وبأعماله السابقة، نصا لكاتب، ومسرحية لفريق، وعندئذ، كما هي العادة، طاب له فاروق وصار صاحبا، ورفيق مجلس ومكلمة، في البيت والتليفون، ولكن هذا الكاتب المبدع، له سقطة بين حين وآخر، مثلما لكل كاتب يخونه الحظ ويجانبه التوفيق. كتب هذا الكاتب نصا ومثل وأخذه فاروق عليه، فهو شخصية عامة تبدع، وحق الجمهور على الناقد عندئذ أن يسمع أيضًا صوته، وفعل فاروق، ورأيت كاتب المسرح الشهير يهاجم «فاروق» لى ولغيرى، ويتهمه فى نقده، ويتهم الجمهور فى ذوقه، ويقول أشياء عن فاروق، أشياء شخصية جدًا، ولم أجد مفرا من الرد على صديقى الكاتب المسرحى الشهير بقولى: أنت كتبت وهو قال، والناقد ليس أجيرًا عند الكاتب، والصحبة بينهما صحبة شخصية، ولا ينبغى أن يفسدها قول ناقد، ولا كتابة كاتب. وعندئذ عرفت حجم الصداقة بينى وبين هذا الكاتب المسرحى الشهير، فقد نظر إلى من عل، وازور عنى وأشاح، ثم مضى مبتعدا بدون تحية، ولا أعرف كيف يمكن أن تكون ثمة حرية وديمقراطية، إذا فقدناها فى ساحة القول، ونبذناها بيننا نحن قبيلة المثقفين، أصحاب الكلمة، والكلمة حرية لأنها ملك ، وملكْ (نظر)، وكمال، وإن أصابتنا أحيانا بلكم، أو كلم (جرح). ذلك ما يجعلنى أرثى كثيرًا للنقاد، وأشفق على الناقد من ردود الأفعال للكاتبين من المبدعين، وغير المبدعين، من الجواهر والأفسال.

ولأن فاروق لا يعرف فى حياته سوى الأبيض والأسود، وفى فكره سوى الحق والباطل، لأنه صريح، والصراحة لا تدع لصاحبها صديقا، إلا فيما ندر، من أصحاب العزم والقوة، فهو شديد الحرص فى حياته على الشرب من نبع الحياة حتى الثمالة ممارسا حريته الشخصية والخاصة، التى

قد تودى به إلى الهلاك، حرصا يدفعه إلى أن يعيش كاتبا، وإنسانا، أقصى ما يستطيع أن يعيشه، والناس اعتادوا التوسط فى هذا وذاك، وألفوه، حتى صاروا لهذا التوسط أرقاء، يخافون من الإسراف هنا وهناك، فيفتقدون المغامرة هنا وهناك، والمغامرة لا تؤدى دائما إلى خسارة، مثلما لا تؤدى دائما إلى مكاسب، لكنها بالتأكيد، مثلما فى حالة صديقى العزيز فاروق عبدالقادر، تغنى القلم، والروح، ويذكر فى طرازه بطرز أصحاب العزم الذين يزخر بهم التاريخ، ممن هم من فصائل الملائكة والشياطين، الذين لا يرضيهم العيش فى الظل، ولا الإيمان بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، ويقبلون دائما بدفع ثمن الحرية والصدق، وأن تكون حيا، وأن تعى أنك لن تعيش على الأرض سوى حياة واحدة مليئة بالقوة، مثلما هى مليئة بالضعف، وتلك أمانة من الأمانات التى حملها الإنسان، الإنسان الأمثل.

هواية كاتب

في مجلة «ب»، كان عملي بمطبخ التحرير. عمل متواضع بأجر قليل، أتدرب على الكتابة والصحافة، أغواني به الصديق «ر. ن»، قال لي: «تعال معي وسوف تكون كاتبا كبيرًا. وكنت قد تعاقدت على عمل بالتدريس في الكويت». فتركت عقدي، وذهبت معه.

في نهار يوم ما من أيام الصيف، جاءنا شاب، وقدم لي نفسه، وتحقيقا عن حي بأسره من أحياء القاهرة. جلس الشاب «ع»، وشرعت في قراءة الموضوع، الخط أنيق على ورق أصفر، وسطور الكلمات مريحة للعين، فانفتح قلبي، لا خطأ في الإملاء، ولا اللغة، ولا التراكيب.

الحي حيّ القلعة، المجاور للحي الذي أسكنه، التحقيق يعرض ببراعة صحفية، مدربة، ومدهشة، تاريخ الحي في الزمان والمكان، ويتداخل فيه بيسر، ودون تعقيد، الماضي والحاضر، الوجوه التي صارت ذكرى في ذمة التاريخ، والوجوه التي لاتزال تعيش، وروائح الزمن عبر العصور، تفوح من السطور والكلمات. وانتهيت من قراءة التحقيق، وقلت لـ «ع» بانبهار وحبّ:

- تسعدنا حقًا معرفتك، والتعامل معك.

لم يكن الصديق «ر» موجودا بالمكتب، لأعرض التحقيق عليه، وأقدم «ع» إليه. طلبت له شايا، وذهبت بالتحقيق إلى الغرفة المجاورة، كانت أبدا نصف مظلمة، ينيرها، فى عز النهار، ضوء خافت من الخارج، عبر الشيش والزجاج، طرقت الباب، وتقدمت إلى «س» سكرتير التحرير آنذاك، قدمت له التحقيق، قائلا:

- أرجو أن تقرأه الآن، تحقيق مدهش.

أخذ «س» يقرؤه بسرعة، وجلست أرقب وجهه، وأنتظر. كان وجهه كعادته محايدا تماما، وهو يقلب الصفحات الصفراء، رفع وجهه، ووضع الموضوع أمامه، وقال:

- موضوع جيد. ضعه فى هذا العدد، يحتاج لرسوم، وعناوين مانشيتات.

قلت:

- كاتبه معى الآن، وأقترح تعيينه بالمجلة، كمحرر.

فقال «س»:

- لا مانع. هاته إلى.

وجه «ع»:

عصر يوم آخر جاء «ع»، ومعه تحقيق آخر، عن قرية «سنباط». قرية أعرف أن سواد سكانها يشتغلون بالغناء والرقص، فى الأفراح والموالد، كان التحقيق بخط غير الخط، لكنه كان مثل سابقه، لا أخطاء به فى الإملاء، ولا اللغة، ولا التراكيب، وبدا لى التحقيق، وأنا أقرؤه، وبرغم اختلاف الخط، يسير على نفس النسق، وبنفس البراعة الصحفية المدربة.

نظرت إلى ذيل التحقيق، وجدته موقعا باسم «م»، ونظرت إلى «ع»، فقال لى:

- إنه لصديق أديب، وظروفه... وهو ينتظر بالخارج، فى الصالة.

نهضت، وفتحت الباب، رأيت شابا نحيلاً، أسمر الوجه، واسع العينين، أليفا إلى القلب. دعوته للدخول، فوقف مبتسما، كان يرتدى بدلة شاركسكين «موضة هذه الفترة»، واسعة عليه من الأكتاف والسواعد، والساقين، جلس «م» وقال:

- ما رأيك؟

طلبت من «ع» أن يتركنا وحدنا، فنهض وغادر الغرفة، فى وجه «ع» كانت ملامح غير مريحة، الوجه سمنى، أملس، من هذه الوجوه الشهوانية، غير المعبرة، وإذ أغلق الباب وراءه، قلت لـ «م»:

- صارحنى. التحقيقان بقلم واحد، ولكاتب واحد، دعنا من اختلاف الخط. ضحك «م» بخجل ورقة، وأشعل سيجارة، وقال بشجاعة:

- هذا صحيح، وأنا الكاتب. وأنا كما ترى خجول، وأخاف من ظلى.

وجاء الصديق «ر» فعاونه كى يعمل معنا بالمجلة، كمحرر مكتب مثلى. فرحت به حقا، فهو ظريف، وأنيس، وحلو الدعابة، وماهر مهارة بالغة فى إعادة كتابة موضوعات المحررين، المليئة بالأخطاء من كل نوع ولون.

واكتشفت من «م» خلال العمل، صداقته لـ «ع»، وأنه يكتب له، أو يعيد كتابة كل ما يقدمه «ع» للمجلة من موضوعات، فى البيت أو فى المقهى، يحدد له «م» المطلوب من معلومات لموضوعه، فيجمعها هذا، ثم يجلس «م» ويصوغها باقتدار فى نسق تحقيق، أو حديث.

سألته وأنا أضحك:

- لم؟ أتقسم معه؟

- لا . . .

- أله عليك أفضال؟!

- ولا هذا.

عدت أقول بحيرة:

- لم إذن؟

فأجابنى بكلمة واحدة، وهو يضحك:

- هواية!!

دهشت، وصمت، وفى عقلى حيرة. أية هواية هذه التى يقدم بها شخص إلى الناس على أنه كاتب، ولا مقدرة لديه على ذلك، أكثر من أنه كسواد العاملين فى الصحافة، جامع معلومات؟

حديث مع نجمة :

مع «س»، اشتغلنا لشهور فى صحيفة «ج»، أنا و«م»، بمكافأة، لا تزيد عن عشرة جنيهات، كنا أيضًا فى مطبخ صفحة «س» الأسبوعية، جهدت و«م» لزيادة المكافأة بعمل تحقيقات حرّاقة، وتقديم أخبار ساخنة، لكن الأجر ظل كما هو، وشهرا بعد شهر الجنيهات العشرة هى هى، ولم يعجبنا الحال فخرجت أنا و«م» من المجلة، أنا إلى وزارة الأوقاف، و«م» غطس، ولم ألتق به إلا مصادفة. وفى إحدى المصادفات لقيته، وسألته موعدا للقاء معا، فحدد لى موعدا بكافيتريا فوق حلوانى بشارع قصر

العينى. ذهبت إلى «م» فى الموعد، وجدته يصوغ حديثًا مع الممثلة النجمة الشهيرة «س». يضع الأسئلة، ويضع الأجوبة أيضًا، ومن الذاكرة، وجلست أنتظر فراغه مما يكتبه بخط أفقى كنبش الفراخ، لاماته وألفاته مثل نوناته، وحين انتهى أقرأنى الحديث، وهو يبتسم بسخرية، وعيناه تبرقان، كأنه يقدر سلفا انطباعاتى عما سوف أقرؤه، كان بين الأسئلة والأجوبة:

- هل تحبين الملوخية؟

- موت؟

- يطبخها لك الطباخ؟

- بل أطبخها بنفسى. يا سلام لو دقتها، تاكل صوابعك وراها.

وفى نهاية الحديث، كان التوقيع: «ع. ص».

قلت لـ «م»:

- حديث طيب ولكنه مضحك، وتوقعت أن يكون التوقيع لصاحبنا (ع). أين سينشر؟

- فى مجلة «أ، ت». فصديقنا يعمل بها الآن.

- أمازلت تمارس نفس الهواية؟

- له بيت، وأعيش معه، وأنتظر عملا فى مجلة «م». صديقنا «س» وعدنى بتوسطه عند رئيس التحرير.

كاتب عبقرى:

كنت قد عملت شهورا بوزارة الأوقاف، وبدأت أنسل منها لضآلة المكافأة، جنيهات عشرة أيضًا، واستأنفت الكتابة للإذاعة، فى برنامجين إذاعيين، وقدمت صديقى «م» إلى النجمة الإذاعية «س. ص»، واعتقدت

أن «م» سيستغنى بأجور مواده الإذاعية عن هوايته، ولكنه لدهشتى ظل يمارس هوايته لصالح «ع»، وبدا لى أن فى الأمر سرًا، قد يكون الخجل من الرد والرفض، وقد يكون العادة، وقد يكون الإشفاق على صديق، إلى أن أصبح صديقى «م» كاتب تمثيليات للتليفزيون، لم يلبث أن صار فيها نجما، مع المخرجة الصديقة «ع» فى السنوات التى هربتُ فيها من القاهرة، ومن الصحافة والإذاعة والتليفزيون، للعمل مدرسا بالسعودية.

التقيت بعد أعوام من العمل بالتدريس فى السعودية، ثم فى البدارى، ثم فى الإسكندرية، بصديقى «م» وكنت قد انتقلت إلى القاهرة، مدرسا أيضًا، شكوت إليه ضآلة المرتب، وعدم كفايته للمعيشة، فصحبنى إلى النجمة الإذاعية «س. ص»، وقدمنى إليها، فقد باعدتنى سنوات الانقطاع عن العمل من ذاكرتها، أعطتنى «س. ص» نصًا إذاعيا لـ «م»، وقالت:

- اقرأه، واكتب مثله، إنه كاتب عبقرى.

نظرت إلى «م» وضحكنا بأسى، وحب، وقال «م» لـ: «س. ص»عنى، إننى عمه وأستاذه، فسجلتها عليه، ولم أعرف إلى اليوم سببا لهذا الوصف. سألته حين خرجنا من مكتب النجمة الإذاعية:

- أما زلت تمارس هوايتك؟

فقال بتأكيد:

- نعم.

- لم؟

ضحك وقال:

- هواية ماذا أفعل؟

عصر الزيف :

شاهدت فى دور السينما أفلاما جيدة، عن روايات لكاتب شهير، أدهشنى أن يكون كاتب السيناريو لها هو: ««م. ل»، وكان سبب الدهشة معرفتى بأنه كاتب ردىء، كان يقدم لنا ونحن نعمل بمجلة «ب» موضوعات صحفية، غير متماسكة، مليئة بأخطاء الكاتبين الصغار والناشئين، وكان «طبخ» موضوعاته يجهدنا غاية الإجهاد، ولقيت الصديق «م»، وسألته فى دهشة:

- كيف يمكن أن يكتب «م. ل» مثل هذه السيناريوهات؟ من أين له هذه الخبرة، وتلك القدرة المفاجئة؟

فابتسم «م» وقال وهو ينفخ دخان سيجارته، بهدوء شديد:

- أنا كاتب هذه السيناريوهات.

صحت:

- لماذا؟

فانفجر ضاحكا وقال:

- هواية.

صحت:

- هوايتك كانت مع : «ع». وسكت. بينكما ود قديم، أفهم ذلك، لكن، مع «م. ل» أنت ترتكب جريمة، تصنع منه كاتبا، وستقدم له يوما، بسبب ذلك منصبا يتحكم به فى رقاب العباد.

فقال بهدوء:

- إن لم أكن أنا، سيجد غيرى، ويحقق ما سوف يصل إليه، نلت منه ألف جنيه عن كل سيناريو، بعيدا عن الضرائب، ولو استطعت تسليك هذه السيناريوهات لنفسى، وهذا عسير جدا لفعلت، ودفعت الضرائب.

ثم نظر إلى، وقال:

- نحن فى عصر الزيف، تذكّر آلاف الأشياء والأمور من حولنا، سوف ترى صدق ما أقول، وتتفرج.

بداية.. الهواية :

صدرت لكاتب قصصى: «ص»، مجموعة قصصية عن الطبقات الشعبية أحدثت بعض الضجة، وكتب عنها نقاد الأعمال الأدبية عن هؤلاء البسطاء الشرفاء. ولقيت صديقى «م»، وتحدثت معه عن المجموعة، وقلت له عن هذه المجموعة، إنها لا بأس بها، فقال لى:

- كتبت يوما أول ما نزلت القاهرة، عددًا من قصصها، أستطيع أن أسميها لك بالاسم.

ضحكت، وقلت غير مصدق:

- للهواية أيضًا؟

قال:

- ربما، لكننى حين كتبت له هذه القصص، عرفت الجوع، وفقد المأوى. كان يصحبنى معه إلى بيته، أتعشى، وأبيت، وأكتب له القصة، ينشرها باسمه، وأقترض منه جنيها.

ظننت مع ذلك أنه يبالغ فى الحديث عن هوايته، حتى لقيت الكاتب الصديق، المغترب الأبدى، فاعترف لى بدوره، أنه كتب له أيضا أكثر من

قصة، وأحيانا كان يكمل له قصة كتب منها نصف صفحة. ولقيت صديقا آخر، شاعرا، ولا عهد لى بكونه كاتب قصة، فأخبرنى أن خير قصص صاحب المجموعة، التى تحمل المجموعة عنوانها، كتبها هو، قال لى:

- أعطيتها له: للنشر فى مجلة «ر» فهو يعمل بها، وإذا بى أفاجأ بأنها منشورة فى العدد التالى من المجلة باسمه. ثرت، وذهبت إلى مجلة «ر»، وفضحت الأمر، وحدث تحقيق، وبكى بحرقة أمام رئيس التحرير. أشفقت على مأساته، وسحبت شكواى، وأنهيت هذا الأمر.

نهاية هواية :

فر الصديق «م» بقلمه إلى شركات التليفزيون العربية، ثم هاجر مع قلمه بجسده، كان يسافر ويعود، ويذهب ويأتى، صار كاتب مسرح ناجحا، وكاتب مسلسلات تليفزيونية ناجحا، ولكنه عرف الصمت، والحزن، والشعور برغم عمله باللاجدوى، فثمرات فنه مسرحا وقصة، لا تعرف طريقها إلى العرض فى وطنه الصغير: مصر، وأكاد أجزم عن يقين أنه قد فارق هوايته، مع الزمن.

انضباط :

زرت صديقى الهاوى، بعد عودته من غربة طالت، كان قد غير زوجة بزوجة، وقرر أن يتفرغ لنفسه، ويؤكد استقراره، أن يستوطن بقعة من الأرض، عدة أمتار عشرة أو مائة، لا يحيد عنها أو يريم، وجدته فى بيت أنيق، تسود مدخله وصالته الظلمة، ويكسو جدرانه لون قاتم، يضيع فيه ضوء المصباح المنير فى عز النهار، والأرض كلها مفروشة بموكيت داكن اللون، حتى المقاعد، ومنضدة الطعام المستديرة، لا تخفى قتامتها على

العين. وفى مواجـهة باب المدخل، كان باب أبيض، مغلق، أدنـاه درجتان من الخـشب، وبجانبـه تليـفون يسـجل، وآخـر لا يسجل، وعلى البـاب الأبيض كانت لافـتة عليهـا سطر مخطوط بلغة أجنبـية، تحتـها سطر بخط الرقعة العربى تقول: عفوا الفنان يعمل. بعد برهة أدخلت على الفنان الذى يعمل. كان جالسا فى غرفة رطبة، فى شـرفتها رقعة شمس فاترة الحرارة، واهنة الضـوء، تطل على منور، بين الـعمـائر الشـاهقـة، ها هو الكاتب الهاوى وحيداً مع نفسه، وعقله. تعانقنا، تضاحكنا، سألته عما أراه بوجهه الأسمر من بقع بيضاء. قال لى:

- تعبت فى علاجها، أطبـاء ، وأدوية، حتى أعشاب العطارين، كله بلا جدوى قلت له:

- ألا تخرج؟

قال لى:

- نادرا، لا أخرج فى سيـارتى الأوبل إلا لعمل، وغالبـا ليلا. وقد تمر أيام لا أغادر فيها بيتى.

قلت له بغيظ:

- والسير؟ والشمس؟ والناس الذين تحب أن تداعبهم.

تضاحك، وقال لى:

- أنا أعرف نفـسى، لقد أصـبت بالشيـزوفرينيـا، واستـرحت لها، واستراحت لى.

وحين زرت أخى الطبيب، سألنى عنه، عن صديقنا الكاتب الهاوى، وحين أخبرته عن هذه البقع البيضاء، قال لى باندهاش وأسى:

- هل انضبط ؟

سألته :

- ماذا تقصد؟

قال لى :

- هل كّف عن الصعلكة، والضحك، والصياعة .

قلت :

- نعم .

فقال لى :

- هذا بهاق عصبى، ولا علاج له سوى أن يكف عن انضباطه أولا .

وساد بيننا الصمت والحزن، فهو صديق حبيب إلى النفس .

من أنت؟

فى زيارة له ذات ليلة، روى لـى الكاتب الهـاوى، عفـوا، قـال إنه ذهب حين اسـتدعى ليكون مع والـده، فى لحظات مرضـه الأخيـرة، وأنه جلس إليه، وقد طال بينهما الصمت، فكلاهما قد صار، منذ سنين، غريبا تماما عن الآخـر. قال له: من أنت؟ عشت عـمرى كله، وأنت ابنى، ولا أعرف: من أنت؟

وصمت صـديقى الكاتب الهاوى. أطرق فـحسب، وحـزنت لحزنه وأساه.

الأقنعة السبعة

أزمة ورق :

في سنوات الأربعينيات، كانت تصدر بمصر مجلة مصورة، هي مجلة «مسامرات الجيب» كان يرأس تحريرها «عمر عبدالعزيز أمين»صاحب سلسلة «روايات الجيب» الشهيرة التي أثرت على شباب الأربعينيات، حبا للقص، وجرأة عليه، وكانت المسامرات تنتزع الأرض الصحفية من مجلتي «الاثنين»، و«الهلال» بصفة خاصة، وتنافس بصحفيتها وموادها التحريرية المنوعة مجلتي «الرسالة» و«الثقافة». وتواجه بالوجبات الثقافية السريعة، لجيل جديد، الوجبات الثقافية الدسمة بمجلات «الرسالة»، و«الثقافة»، و«الكتاب» و«الكاتب المصري».

كانت مجلة رومانسية الطابع والتوجه، يجد فيها القراء، أثناء الحرب العالمية الثانية، وبعد هذه الحرب، التسلية والمهرب، وكانت تعتمد على جانب كبير منها على الترجمة للقصص الرومانسية، هذه الترجمة المشوهة، والتي لا تجد مانعا من التلخيص، والإضافة، والحذف والتعديل. وكانت أزمة حصول المجلات والصحف على ورق في ذلك الحين طاحنة.

إلى صاحب المسامرات أخذ شاب يبعث بفيض من القصص الرومانسية، تحمل توقيعه، وتمر الأسابيع، ولا قصة واحدة منها تنشر له. وذهب الشاب إلى صاحب المسامرات يسأله عن مصير قصصه، فقال له فيما يحكى العالمون ببواطن الأمور:

- قصصك صالحة للنشر بالمسامرات، ولكنها طويلة بعض الشيء، ونحن نعانى من أزمة ورق.

أوشك الشاب أن يقول له: إنه على استعداد لاختصارها للحيز المطلوب، لكن فكرة أخرى ومضت فى رأسه. كان له قريب، ربما كان خاله، يهيمن على توزيع الورق على الصحف والمجلات، فقال له فيما يرويه المعاصرون:

- وإذا حللت لك أزمة الورق هذه، وبالسعر الرسمى، بعيداً عن السوق السوداء.

فأجابه صاحب المسامرات:

- ياليت، ننشر لك قصصك إذن، ونحن مطمئنون، ولا نبالى معها بقصر ولا بطول.

منذ ذلك الحين صارت قصص هذا الشاب تتوسط صفحات هذه المجلة الأسبوعية، كل أسبوع تقريبا، مفرودة على الصفحات، ومزينة برسوم ملونة، يتصدرها اسم الضابط الشاب ببنط خطى كبير.

كانت القصص رومانسية، توشك أن تكون ضربا من الأساطير والخرافات، تتسق مع طابع المجلة الرومانسى العام، وتلبى حاجة أرباع المتعلمين، والمراهقين والمراهقات، إلى التسلية والترفيه، والهرب من الواقع المأساوى لجو الحرب العالمية ، وآثارها.

ولمع اسم الشاب الجديد إلى جانب أسماء أخرى من نفس الطراز من الرومانسيين: الوردانى، وغـراب، وكانت القصة العربيـة، فى مصر، تشق لنفسـها دروبا واقعيـة أخرى على أيدى كتـاب كبار. ويقال والعـهدة على الرواة، إن قـصص الشاب لم تكن له، وإنهـا كانت بين أوراق أبيـه، ومن تأليف أبيه، وإنه تجرأ على نسـبتها لنفسه. ولم يتـسع لى الوقت ولا الجهد يوما للتحـقق من هذا الأمر. ولا أذكر أن قصص الشاب بالمسـامرات، قد نشرت فى كـتاب بعـد ذلك، بين كتـبه الكثـيرة. فهل طـوى الشاب هذه الصفحـة، بعد أن نال ثمرتها، وخجل فـيما بعد من اسـتمرار هذه الكذبة على أمل أن ينسى الناس، وحـتى لا تخنق هذه الخدعـة ضمـيره، أم أننى أسوق الشك جزافا دون تحقق من مدى صحته؟!

صانع المعجزات:

وكان صـاحبنا هذا من الضبـاط الشبان الذين يمارسـون الكتابة، ولم يكن من الضباط الأحرار.

بعد قـيام الثورة، واستـقرار الأمور، وفـيما أذكر إثر جـلاء المحتل، كانت الأحـزاب قد حلت، والـبرلمان قد ركن عـلى الرف، والدستـور قد ألغى، ليحل مـحله دستور مـؤقت، كانت الثـورة تستهـدف السيطرة على الرأى العـام بالصحف، وعـلى الثقـافة بـالمجلات والأجـهزة، وكـان من الطبيـعى أن تتقدم الثـقة بالضباط المتـصلين بالثقافـة بسبب ما، على الثـقة بغـيرهم من المدنيين، أو على الأقل يوكل إليـهم قيـادة الأمور، وتدبيـرها بالتخطيط، وكـانت الفرصة ذهبـية، للضابط الـشاب، ليكون رجل الدولة الجديدة، فى الثقـافة المصرية، وفيما بـعد فى الثقافة العربيـة، والآسيوية، والأفريقية.

تقدم الشاب، بمشروعات لأجهزة وأندية ومصالح ثقافية، وتمت الموافقة عليها، فظهرت مهاراته الإدارية فى التخطيط والإشراف والمتابعة. وجاء حين صار فيه (مصريا، وعربيا، وأفرو أسيويا) صاحب مناصب سبعة، كان عليه أن يرتدى لكل منها قناعا في كل ساعة من ساعات يومه، وكان قوى البنيان، بائن الطول، ملون العينين، تشى ملامح وجهه وبشرته بأصوله التركية القديمة.

كانت غايته الأولى، وغاية الدولة منه، أن يستقطب دائما المثقفين إلى صف الخط السياسى للدولة، وإلى الولاء لشخصه، وإلى جانب ذلك أن يحقق لنفسه لقب «الكاتب الكبير» عبر محورين فى موضوعات قصصه: أحداث الثورة، والحكايات التى تستهوى المراهقين والمراهقات، فى جو رومانسى، أكثر مصرية، يجهد ليكون واقعيا، ورمزيا، فى نفس الوقت، ففى مواجهته فى دنيا القص، كُتَّاب كبار لوامع، كثيراً ما أثاروا غيرته وغيظه، فالقراء المثقفون يحفون بهم، أكثر منه ومن نظرائه، والنقاد دائمو الكتابة عنهم كلما صدر لأحدهم كتاب جديد. وكان يقول دائما للنقاد:

- أليس فى البلد سوى فلان وفلان؟ لماذا لا تكتبون عنى، حتى ولو بالشتيمة، وعن فلان، وفلان، وفلان؟ أنتم متحيزون، و . . .

كانت كل مقاليد الثقافة تقريبا فى يده، وكان نفوذه واسعا، على الصحف، وعلى المجلات، ولكنه لم يستطع أن يملك قلب أحد. أو قلم أحد، ممن يعنيه أن يمتلكهم، سوى المتحلقين، والمتزلقين، والوصوليين، ومع ذلك كان دائم الإصدار لكتبه، عبر دار نشر وحيدة، وكانت كتبه رائجة، واسعة الانتشار، وسرعان ما تتحول عناوينها إلى جمل محفوظة تتردد على ألسنة المراهقين والمراهقات فى كل حوار، وسرعان ما تتحول حكاياتها إلى أفلام، تنحدر معها دموع المشاهدين، فى المواقف

الميلودرامية، وكان يقول لزائريه رافعا إحدى قدميه عن الأرض، وهو جالس، إلى أعلى قدر مستطاع:

- من فلان؟ ومن فلان؟.. أنا وحدى تأتينى كل يوم رسائل من القراء، وبهذا الارتفاع. أنتم أيها المثقفون والنقاد مخدوعون.

كانت تلك محنته، وجراحه، وظل يحاول التعالى عليها بالوجه البشوش، فغايته هى استقطاب المثقفين، فى البداية بالإحسان إليهم، يوفر لهم عملاً، ودخلا قليلا، ويظلون بحاجة إليه، عن طريق المكافآت، ثم عليهم أن يثبتوا ولاءهم لشخصه، ويحملوا حقيبته عنه حين يرونه، أو ينقلون إليه أخبار الوسط الثقافى، أو يقفون له احتراما إثر حضوره، أو ينوبون عنه فى الرد على معارضيه وخصومه، يكيلون لهم شتى الاتهامات باللون الأحمر تارة، وبالانحراف تارة، وربما بالخيانة تارة أخرى، مصفقين له فى الندوات، مستخدمين عضلاتهم وأصواتهم المرتفعة تارات.

كن كما أهوى واتبعنى:

كان الشاب خدوما، لمن يطلب مكرمته، ممن أصابتهم حرفة الأدب، أتاح مرة لشاعر أكثر من مكافأة، فى أكثر من مكان من الأجهزة الثقافية، نظير عمل محدد،أن يتواجد فى كل ليلة بناد معين من أنديته، ومهمته أن يسمع ما يدور، ويرى ما يحدث بين الشباب المثقفين بصالة النادى، ثم ينقل له ما يقولونه. قال له فقط:

- أحب أن أراك مساء كل يوم بصالة النادى.

ولم يكن حقا يراه، إلا حين يريد الآخر مقابلته، ويغلق وراءه الباب، فقد كان من عادته، ذلك «الضابط الشاب»، أن يصعد سلما خاصا به فى النادى، ويدخل غرفته، كرجل دولة، وعلى الكل أن يسعى إليه.

وأتاح مرة لكاتب قصة شاب متمرد، ولا انتماء سياسى له، جاء من «عروس البحر» يطلب عملا بالثقافة، ولا مؤهل له، كان بائع صحف متفتح القلب والعقل، جرته قراءته للصحف والكتب، مثلنا جميعا، لكتابة قصص من أدب اللامعقول، لم يرتد مثلها من كتاب العرب أحد قبله.

وكانت قد صدرت له مجموعة قصص «لا معقولة»، ورحب به الضابط الشاب، وأوكل له عملا بمكتبه، فى جهاز من أجهزته الثقافية، لكن القصاص الشاب لم ينجح فى أن يكون موظفا صغيرا، يتجمل بحسن المظهر، وذلاقة اللسان، وإظهار الطاعة، فاصطدم به بكلمات عنيفة، وعاد إلى «عروس البحر»، ربما ليبيع الصحف مرة أخرى. قال يوما لى على شاطئ «عروس البحر»:

- قلت له.. وقلت له.. لست من حملة الحقائب الذين يحيطون به، ويعيشون ساعات يومهم لأجل مرضاته، أنا لم أولد عبدا لأحد.

وكانت تلك آفته فى الاستقطاب، يريد أتباعا، ولا يريد رفاقا وإخوة، يريد «جنودا» له عليهم الأمر، وعليهم السمع والطاعة.

كانت الحياة الثقافية الشابة منقسمة آنذاك: ثمة كتاب لهم انتماءاتهم السياسية التى تتجاوز واقع الثورة نفسه، وبينهم كان كتاب حقيقيون لهم قراؤهم ونقادهم أيضًا، ويعارضونه، وكتاب من الطبقة الثالثة والرابعة ونازلا يتبعونه، وكانت لكل منهم خنادقه فى الحياة العامة. وكان الشاب بائسا من مجموعات المتمين، لكنه كان دائم اللقاء لهم، والإحسان إلى من يطلب إحسانه منهم، ووضع عينيه على فئة من الكتاب، لا يؤيدونه، وهو يعلم أنهم بأقلامهم، وفكرهم، فى خندق الكتاب المتمين، وبدأ محاولة يائسة لاستقطابهم، وكنت واحد منهم.

تجربة صغيرة :

قيل لى، على لسان صديق كاتب، إنه يريد مقابلتى، وذهبت معه إليه، فى غرفته الليلية بناديه. وجدناه جالسا إلى صدر منضدة اجتماعات محدودة المقاعد، ومعه عدد من حملة الحقائب، كانت المنضدة مكسوة بالجوخ الأخضر مثل مكتبه، ولامنى لأننى لست عضوا فى الناديين اللذين يشرف عليهما، مع أننى كاتب. وذكر لى أنه قد وقع لى استمارتى عضوية بالناديين، وقبل أن يسمع رأيى قذف بى فى التجربة. كانت ثمة مجلة لأحد الناديين، يريد مشاركتى فى إحيائها، مع صديقى الكاتب، وكنت وكان الكل يعلم مدى فشلها التحريرى، إلى درجة أنها لا توزع إلا ستين نسخة بالسوق، برغم ما ينفق عليها من أموال ميزانيتها تستقطع من بنود أجهزة ثقافية رسمية أخرى.

وكان ينظر إلىّ، بشك مستريب، لكنه كان، فيما يبدو خاضعا لإرادة رجل الدولة. طلبت شرطا واحدا لنفسى، ولصديقى الكاتب، ألا تنشر مادة بالمجلة موافقة منى ومن صديقى، وذلك يعنى أن يرفع هو، الضابط الشاب، ومعه رئيس تحرير المجلة، يده عن التحرير، فلنا اختيار المادة للنشر، وليس لهما حق الإجازة للنشر، ولدهشتى قبل الشاب ذلك، وأبدى ودا مفاجئا لى، وهو يصافحنى قائلا كأنه يضع ذيلا ثانويا للأمر كله:

ـ سيكون معك، أنت وصديقك، فلان، وفلان، وفلان، ستكون مهمتهم معكما هى الإشراف على التنفيذ والطبع.

كانت المهمة غير مأجورة. لكن الرغبة فى إحياء المجلة، كانت فى نفسى كاسحة. ولم أسترح لحملة الحقائب الذين ذكرهم فاقترحت اسمين آخرين، أعرف قيمتهما، وكانا عونين له فى جهازين خطيرين للثقافة، فقال لى:

- لهما مهام أخرى معى، وهما مثلك وصاحبك، لا وقت لديهما للمطبعة.

بدأنا اجتماعاتنا لإعداد للمجلة فى عهدها الجديد، مع عدد من الكتاب الشبان. واتصلنا بالأصدقاء، وبالفعل نجحنا فى إصدار مجلة ناجحة المادة والتحرير، برغم من أن اسمها، وكان قد مات، لم يتغير. كنا نجتمع فى مكتب رئيس التحرير، الوثير، بمقاعده الجلدية، حتى حدث أمر لا ينسى.

وفدنا لاجتماع ذات ليلة قبل حضوره، فوجدنا باب غرفته بالنادى مغلقا فى وجوهنا، طلبنا من «ساعى» المكان، فتحه فأخبرنا أن المكتب خاص برئيس التحرير، وأن هذه هى أوامره. استبد بى الغيظ، وراح صديقى الكاتب، يهدئ من ثائرتى، وجلسنا فى انتظار رئيس التحرير بالصالة، ولكنه جاء، ولم يلتفت إلينا، ودخل مكتبه، وأغلق وراءه بابه. ذهبت إليه، وسألته عن السبب، فقال منتفخا بزهو تركى:

- المكتب لرئيس التحرير، ولا يجلس فيه أبناء الفلاحين.

ثرت فى وجهه، وأعلنت انسحابى من المجلة، ولحق بى حملة الحقائب فى الطريق لإثنائى عن قرارى، وليسمعوا منى ما يسرهم فى الضابط الشاب، وفى رئيس التحرير، وينقلوه إليهما، ولم أتحسب فى التعبير عن رأيى.

كان السبب فى هذا التغير واضحا لى، حمل حملة الحقائب موضوعا كتب عليه الشاب: «ينشر»، وذيله الشاب بتوقيعه، ومن رئيس التحرير، حوّل موضوع آخر للنشر، وكان أمر النشر موقعا، وقرأت وصديقى الكاتب الموضوعين، ورفضنا نشرهما لضعفهما الواضح، فنشرهما يعنى بداية انهيار المجلة، ويعنى التنازل، والتنازل يجر تنازلا، وكأن الغاية هى مجرد استقطابى وأصحابى، وضمنا إلى الزمرة.

وكان فراقا لم أحزن عليه، دام عشر سنوات فيما أذكر.

وفد أدبى :

دعانى الضابط الشاب بعد سنين، لأكون عضوا فى وفد من الوفود الأدبية، لعاصمة أوربية، وقبلت الدعوة، قابلته بمكتبه، كان بشوشا كعادته، وكأن شيئا لم يحدث بيننا، قبل عشر سنين مضت، وكأن كلمة واحدة لم تنقل إليه يومها. وزودنى بالأوراق الرسمية اللازمة لتأشيرة الخروج آنذاك. وقبل أن أغادر مكتبه، أرانى، من سلة المهملات، ورقة بها أسماء أكثر من عشرين كاتبا، كانت الورقة ممزقة نصفين، وقال لى:

- أتعرف صديقك فلان «الأحمر»؟

قلت له ضاحكًا:

- نعم. أعرفه، وأشك أنه حقا «أحمر».

قال الشاب:

- كان هنا قبل قليل، وقدم لى هذه الورقة، قائلا إن بها أسماء الكتاب الحمر، وطلب أن أقدمها لأجهزة الأمن. لم ألق عليها حتى نظرة، ومزقتها كما ترى، وألقيت بها فى هذه «السلة».

ثم قال لى:

- ستفهم حقيقة هؤلاء الناس يوما ما.

لم أكذبه، ولم أشك فى صحة ما حدث، ولم أسأل عمن كتب الورقة، ولم أقل له (للضابط الشاب): لم تحتفظ بها إذن، فى.. سلة المهملات؟! لكن الموقف أحدث فى قلبى وجعا.

كان بين أعضاء الوفد، وكنا خمسة، واحد فقط من حملة الحقائب، يحمل اسما أدبيا، كأسماء النجوم، غيّر اسمه الحقيقى، ويقال إنه غيّر اسمه، بعد تورطه فى فضيحة مالية، من عمله، فتقرب للضابط الشاب بالكتابة عن أبيه، فألحقه بعمل، مع حملة الحقائب.

أثناء الرحلة بين مدن ذلك البلد الأوربى، ولم يكن أحد من أعضاء الوفد، فيما نعرف بعضنا البعض، يعرف لغة أهل البلد، كان الحوار الأدبى، وغير الأدبى، يتم بواسطة مترجم، وحدث أن مسئولا بهذا البلد كان يتكلم بلغة بلده مع المترجم، نحوا من خمس دقائق.

ولاحظ، ولاحظنا معه، الأذن المرهفة لحامل الحقائب، والابتسامة الصفراء لما يسمعه من المسئول، فوجم المسئول، وقطع حواره مع المترجم، أدركنا أن رفيقنا «حامل الحقائب» يعرف لغة البلد، وأنه من بيننا يسمع ولا يتكلم، ويرقب، ولا يعلق.

وهمس لى المترجم فيما بعد، بأن صاحبنا يعرف الألمانية، ودرسها قبل ذلك ثمانى سنوات بمصر، ولم يكن قد مر سوى يوم على ما حدث. وتأكدت مع الصحاب أن صاحب الأذن سينقل كل شىء إلى الضابط الشاب، وأن أحدا لن يكون مطالبا بتقرير عن الرحلة، إثر العودة، وأن للبلد للأوربى وسائله للمعرفة، من الأرشيف، وأن علينا أن نحترس، فى الغربة، وفى الوطن.

اللقاء الأخير :

ضاق صدرى بعملى كمدرس، شحذت ذهنى، وكتبت طلبا طالبا للضابط الشاب، ووسطت صديقا، كان يعمل ساعدا أيمن له، فى أحد أجهزته، وذهبت لمقابلته، فى أهم مكتب لديه بين مكاتبه، قدمت له

طلبى، وطلبت موافقتـه لنقلى، وكنت أعلم أن فى وسعه ذلك بجرة قلم، فوضع الطلب جانبا، ونظر إلىّ، وقال بوجه ببشوش:

- كيف، وأنت لست معنا.

قلت له:

- أعـرف فقط، أننى كـاتب، وأن من حـقى أن أحصل على عـمل يتناسب مع عملى ككاتب، والعمل ليس غايتى. الكاتب فىّ هو ما أحرص عليه.

فمال نحوى، وقال ضاحكا، ولأول مرة يكون صريحا:

- أكتب أولا فى مجلة «كذا».

وكان يرأس تحريرهذه المجلة أحد حملة الحقائب. قلت له:

- لا أقـبل ذلك، ليس موقـفـا من المجلة، ولا من الدولة، ولا من الثورة، ولا مـنك، وإلا لما جئت إليك. هذه المجلة تتـسهل فى النشـر لمن ليسوا كتـابا. ونشرى معهم، فى مجلة واحدة، سـيسىء إلىّ، أنا يشرفنى النشر مع الكتـاب الذين أحترم أقـلامهم، وأحترم فـيهم كونهم أصـحاب رسالة.

أخذ يغـرينى بأن يدفع أضعـاف ما يأخـذه أى أحد من الكتـبة، وأن ينقلنى ويرقينى إلى المنصب الذى أختاره.

اتخذت قرارى بينى وبين نفسى فى تلك اللحظة، أن أبقى مدرسا إلى النهاية، فـهأنذا أسـتدرج لأصبح واحـدا من حملة الحـقائب، ويجـفونى قلمى، وغادرت مكتبه الفاخر، قائلا له: آسف.

وسط الطريق :

حدثنى فيما بعد صديق شاعر، ذكر أنه قابل الضابط الشاب فى حفل بسفارة، فى عيد قومى لبلادها، أخذه جانبا، وقال له ضاحكا:

- إلى متى ستظل تسير أنت، وأصدقاؤك : فلان، وفلان، فى وسط الطريق؟

وفسر لى صديقى الشاعر، مادار بينهما، ثمة كتاب يمشون على الطوار الأيسر، ويهتمون ببعضهم البعض، وكتاب يمشون على الطوار الأيمن، ويهتمون ببعضهم البعض. وآخرون، مثلنا، يمشون فى وسط الطريق، لا يهتم بهم أحد من أهل الطوار الأيمن، ولا من أهل الطوار الأيسر.

وضحكت وصديقى الشاعر. فصاحب القلم لا انتماؤه هو وقلمه مع ما يعتقد أنه الصواب والحق، والفن الجديد هو بالضرورة مع التقدم، والكاتب الحق هو من يقدر أبدا على قول: لا، فى أى وقت، والانتماء - أى انتماء - يحرمه من هذه القدرة، الحرية، والانتماءات تنسى فى التاريخ، إلا أن تكون شائنة، ولا يبقى سوى الفن الجيد.

ذو الأقنعة السبعة :

رجل دولة كان، أجل. وأضعف من دوره، حرصه الدائم، على تسخير ما تحت يده من أجهزة، لخدمة نفسه ككاتب، وإرادته دائما أن يضع كل المثقفين، فى سلة واحدة، يقدمها للدولة أبواقا وإعلاما، مثلما يفعل هو، وبشرط واحد أن يسبّحوا بحمده، ويمجّدوا ثمرات قلمه طوعا أو كرها.

في كل صباح، في الثامنة تماما، يغادر عربته، ويصعد إلى مكتبه بأحد نواديه، ويظل ساعتين يكتب دون تردد للحظة (رأيت مسوداته على مكتبه) دون شطب لكلمة واحدة. في العاشرة ينزع قناع الكاتب، ويرتدي قناعا آخر، ويظل هكذا كل ساعتين يعبر به سائقه الطرق والكباري من مكتب إلى مكتب، والأقنعة تتغير.

كانت كتبه تتوالى في السوق، بأغلفة ملونة، وصور نسوية، بعضها مجرد خطوط على أرضية ذهبية، وتتحول أفلاما، ولم يكن يظهر فيها خطأ لغوي واحد، وقد رأيت بنفسي كثرة أخطائه النحوية والإملائية في مسوداته. وقيل لي يوما، إن أحد أخواله أستاذ لغة، بكلية جامعية، وإنه يراجع له ما كتبه، قبل أن يدفع به إلى دار النشر.

ومع موقفه الواضح مع التقدم في إطار الثورة وشعاراتها ومقولاتها، وضد التقدم خارج الثورة بين المثقفين، فقد دهشت لنيله جائزة دولية، لا أعرف أنها يمكن أن تعطى لمثله.

ومع إلحاحه الدائم على النقاد كي يكتبوا عنه، ولو بالشتيمة! فلم يطق صبرا حين تعرض ناقد للكتابة عنه بحرية وجرأة، فتوعده بالويل والثبور، وعظائم الأمور، حتى وهو في عمل بعيد عن التبعية له.

وتحدث الناس عن خوف الناقد وذهابه إليه مسترضيا ومعتذرا أكثر من مرة، وقبوله، أكثر من مرة، العمل معه، في مجلاته، متنازلا عن ذات نفسه، قابلا أن تغلق المجلات على يديه واحدة بعد الأخرى، ففي ظل الضغوط والقيود، والرغبة في وضع الكل في سلة واحدة، والجيد منها مع الرديء، وفرار الجيد من الرديء، لا يمكن أن تستمر مجلة في الصدور، أو ينجح معها تحرير.

ومن عهد، إلى عهـد، لم ينس الضابط الشاب قط، أنه رجل الدولة فى الثقافة، حتى عندما ضرب عهد بعـهد، كان مع الثورة فى تقدميتها فى عهد، ثم كان معها فى تراجعاتها فى عهد آخر، سوطا فى يد سيد الثورة، وكانت النتيجة المحتومة أن يذهب ضحـية أقنعته السبعة، وتنقله كالبهلوان، من حبل إلى حبل، فوق ارتفاعات شاهقة.

مـازلت أذكر له مـوقـفًا غريبـا، فبـرغم كـونه رجل دولة وثورة فى الثقـافة، رأيتـه فى مقر أهم أجـهزته، واقفـا على السلم بالساحـة ينتظر، وكنت ذاهبـا لزيارة صديـق، وجاءت سـيارة فـارهة، تحـمل فلانا (باشـا سابقا)، وأسرع الشاب، يفتح له باب السيارة قائلا بانحناء:

- تفضل يا باشا.

قــوس قــزح

دعابة ثقيلة :

عرفت صاحبنا «قوس قزح» أول مرة، وأنا أغادر مبنى الإذاعة القديم بشارع الشريفين. سألنى، ولم أكن أعرفه معرفة تذكر، سوى بالاسم، كما لا أعرف عنه سـوى أنه كاتب، ولم أكن حتى تلك اللحظة، قـد قرأت له شيـئًا. كل ما كنت أعـرفه عنه أنه أحـد المتواجدين فـى حياتنا الثـقافـية، والإعلامية، وكان شخصـه، آنئذ مرتبطا فى ذهنى أبدا بربطة عنق لا تفارقه فى صيف أو شـتاء، وبدلة يختلف دائما لون «جـاكتتها» عـن «سروالها». قال:

- أين كنت؟

قلت بدهشة لنوع السؤال، ووقته:

- كنت فى هذا المبنى.

قال ببساطة مستفزة:

- مع من هناك؟

أجبته ببساطة عمن كنت مـعهم، أمام استوديو ١٢، فى ركن الجلسة

الدافئ المخصص لزوار النجوم من المذيعين، وكانت من بينهم فيما ذكرت مذيعة نجمة اسمها من جهة «اللقب» هو نفس اسم لقبه، فضحك وقال بهدوء شديد:

- أتعرف من هذه؟

قلت:

- لا.

فقال ببساطة بالغة، كمن يتنفس بيسر:

- إنها زوجتى.

وظننت لغفلتى، أو لطيبتى، أن زوجته قريبة له، أو أنها تحمل اسم زوجها، على الطريقة الفرنسية بعد اسمها، وفيما بعد فى اليوم الثانى، أو العاشر، سألت صديقا لى، وزميلا لها يعمل مذيعا معها، عن «فلانة»: هل هى زوجة «فلان»؟

فضحك، وقال:

- من قال لك ذلك؟

فقلت له:

- هو.

فقال لى:

- كيف، وهى زوجة زميلنا «فلان».. المذيع معنا.

ووجمت، ففلان هذا أعرفه، كما أعرفها، وفكرت أن صاحبنا «قوس قزح» كان يهزل، أو ربما كان يعطى نفسه حجما ونفوذا ما، فى عينَى لسرّ لا أعلمه، ولم أعلمه قط حتى الآن.

استعارة :

ذهبت لزيارة أستاذ جـامعى، ناقد، أو بالأحرى مـؤرخ نقد، وواحد من قلة قليلة فى بلادنا، تحسن دراستها للأدب المقارن. كان الأستاذ صديقا بقدر ما تكون الصداقة بين الأستاذ وتلميذه. قيل لى إنه معتكف، وقيل لى إنه مريض، وكنا فى فصل الشتاء، سألنى عن «قوس قزح»، وأنا أعوده:

- أتعرفه؟

قلت:

- أجل.

وأردفت فى دهشة، وتخوف، لا أدرى لها سببا :

- هل وصل إليك؟

توقعت فى اللحظة نفسـها، أن يكون قد ألحق به أذى ما، لا أدرى: لم؟

قال لى الأستاذ الصديق:

- أجل، لم أكن أعـرفه من قبل، حـتى تلفن لى، وطلب مقـابلتى، فحددت له موعداً، وجاء.

وكان سؤالى قد رابه، فقال لى:

- أليس هو معيدا بقسم اللغة الفرنسية، بكلية الآداب؟

ضحكت، وقلت:

- هل قال لك ذلك؟

فشحب وجهه قليلا، وقال، كأنه شعر بأنه وقع فى فخّ:

- لكنه قدم لى بطاقة، عليها اسمه، وتحت اسـمه: معيد بقسم اللغة الفرنسية، بكلية... وجامعة...

قلت مقاطعا:

- لا صلة له يا أستاذنا بأى قسم، ولا بأى كليـة، ولا بأى جامعة.. حتى الآن.

وجم الأستاذ الجامعى الصديق، وتمتم:

- قال لى إنه يعد رسالتيه الماجستير والدكتوراه، عن الأدب المقارن. وطلب عونى. وقال إنه سيستشيـرنى كلما واجه مشكلة فى رسالة، فهو لا يثق بأسـاتذة القسم، ولا بالمشـرف عليه، بقـدر ثقتـه بشخـصى وعلمى. تصور.

قلت بتخوف:

- هل أعطيته كتبًا؟

قال على الفور:

- صفوة ما عندى من الكتب، حتى الكشـاكيل التى كنت أدون فيها ملاحظاتى وتعليقـاتى، وأنا بباريس أثناء الحرب العالمية الثـانية، لا أستطيع أن أغادرها.. طوال ست سنوات، أعطيتها له.

قلت:

- كم مضى على أخذه للكتب والكشاكيل؟

فقال، وهو يجهد للتذكر:

- عامان أو أكثر.

قلت بيأس من أية قدرة على معاونته فى استرداد كتبه ودفاتره:

- لن يعيدها إليك، استعوض الله فيها.

ولا أعـرف حتى الآن إن كـان قد أعـادها إليه، أو طلبـها الصـديق الأستاذ منه، لكننى أكاد أجزم أن كلا الاثنين لم يحـاول شيئا نحو الآخر، وربما لم ير أحدهما وجه صاحبه.

فيما بعد، عرفت أن هذه الاستعارة، غير المردودة، كانت فى حينها. فـصاحـبنا «قـوس قـزح» يحسن الاسـتـفـادة من الكتب، والملاحظات، والتـعليقـات، فـيمـا يكتـبـه من كتب، ومـقـالات، بالقص، واللصق، والمونتاج، وحسن الصـوغ لأفكار الغير، بطريقة يحـسن إخفاءها، عن أى معرفة لنسبتها ومصدرها.

ومرض صديقنا الأستاذ الجـامعى، بذات الكبد، مرضا طويلا، وودع الدنيا، وما بقى عنده من كتب، بل ودفاتر، ورسائل جامعية للطلاب الذين كان يشرف عليـهم، بيعت من بعده، بأرخص الأثمـان، على الأرصفة مع باعة الصحف، وأسوار الكتب الشعبيـة، ومكتبات الكتب القديمة. فحدثت نفسى: هل كان صاحبنا «قوس قزح» على صواب، حين أخذ ما أخذه من كتب؟!

زيـارة:

زارنى صـديقنا الكاتب «المغـترب الأبدى»، وقـال لى: إن صاحـبنا «قوس قزح» مريض، وأجريت له عملية جراحية. لا أذكر، إن كانت زائدة دودية، أو بواسير. وإنه ذاهب لزيارته، وجاء ليصحبنى معه إلى بيته.

دخلنا غـرفة مكتـبـه، وطلب منا الانتظار، فـصاحـبنا «قوس قـزح» بالحمام، فأدركت أنه الآن بخـير، وفى فترة الانتظار التى طالت، جىء لنا

بالشاى، ولما كانت الكتب ليست أسراراً خاصة، وكانت الأوراق المكتوبة من الأسرار الخاصة، إلى أن تنشر، أو يطلعك كاتبها عليها، قبل نشرها، فقد تجافيت عن أوراقه على المكتب، ورحت أقلب فى الكتب الموضوعة على مكتبه، وكانت كلها كتبًا نقدية، ضخمة الحجم، وصدرت خارج القاهرة، وبعضها كان مترجما هذه الترجمات المتعجلة، غير الأمينة، التى تصدر فى العاصمة «الترانزيت».

وكانت بين صفحات الكتب، بين بعض الفصول، أو صفحات بالفصول، قصاصات أوراق مستطيلة، ولفتت نظرى خطوط طولية، مقوسة على فقرات بعينها قد تستغرق صفحات، وقد كتب صاحبنا «قوس قزح» بجانبها بالقلم الرصاص أيضًا «تنفع فى فصل كذا، بكتاب كذا»، وهكذا كانت كل الكتب، بجوانبها كلها خطوط، فى عديد من الكتب والصفحات.

أطلعت صديقنا الكاتب المغترب الأبدى، عليها، وقلت، فيبدو أننى ولدت مسحوبا من لسانى:

- أرأيت؟ صاحبنا يكتب بطريقة القص، واللصق، وأشك أنه يسطو، ويحسن الصياغة، وفن الإخفاء.

فلم يعلق صديقنا الكاتب، المغترب الأبدى. بشىء، فكرت أن كليهما ينتمى إلى الآخر، ذلك الانتماء الذى يوقع فى الانحياز والتعصب الذى يُحسن كلاهما إخفاءه.

وجاء صاحبنا «قوس قزح» مستحما، ضاحكا، متورد الوجه كعادته، وقلت له ضاحكا، بعد السؤال عن الصحة:

- كنا نتم عليك.

وأريتـه ما رأيت، وأعدت عـليه ما قـلته، فـضحك، ولم أشـعر أن ضحكه مراعاة لكرم الضيافة، وقال :

- يا سيدى. (بمعنى: لا شىء يهم، أو لا تأخذ فى بالك، أو.)

بوتيك :

فى سنوات الهجرة الكبرى لأصحـاب الأقلام بأقلامهم، أو بأقلامهم وأبدانهم معا، إلى الأقطار الشقيقة، والأجنبية، مع أصحاب الحرف والمهن من الزراع والصناع، هاجـر صـاحبنا «قـوس قزح» بقـلمه وشـخصـه إلى عاصـمة عـربية، من هذه العـواصم «الترانزيت» و«البـوتيك» الكبيـر لكل شىء: الفكرة والمادة معا، الذى تصب فيه كل الروافد.

وبين حين وآخر، كنا نقرأ له، مقـالات وكتبا، كانت شجاعتـها تثير العجب، والخوف، ولو أنها صـدرت له وهو فى القاهرة كان صداها يمكن أن يكون عندئذ أكبر، حتى لدى السلطة التى كـانت تسير آنذاك فى شجب عهد مضى، بين المثقفين والسياسيين وغيرهم. لكن الوافد من كتب صاحبنا «قوس قـزح» ومقالاته الصحـفية كان قليـلا ومحدودا، لا يثيـر ردود فعل داخلية تذكـر. وللدهشة فوجئنـا بصاحبنا «قوس قـزح»، يعلن عن إصدار مجلة فكرية و«نارية»، ويبلغُنا أنه كتب لهـذا، أو لذاك، يطلب منه التعاون معه بالمقالات فى تحرير المجلة، وأنه سـيدفع أجرا جزيلا، وزاد فى دهشتنا أننا لا نعرف أية دار نشر ستصدر عنها هذه المجلة الفكرية «النارية»، أو من سيمولها، فصاحبنا «قوس قـزح» فيما نعرفه، يعيش بالكاد من قلمه، وربما بسبب ذلك كانت هجرته بشخصه وقلمه معا.

وصدر من المجلة الفكرية «النارية» عددان، رفيعا التحرير، والطباعة، والمادة، والمستوى. وعلى غير انتظار توقف صدور المجلة الناجحة، ولسبب

لا نعلمـه، وجاءتنا الأخبـار بأن صاحـبنا «قوس قزح»، ارتحل إلـى مدينة النور، وقيل لنا (والعهدة على الرواة من مـروجى الإشاعات): إن صاحبنا «قوس قزح»، قد أخذ عشرين ألفا (كذا) مـن عاصمة عربية، زاعما لها أن المجلة الفكرية «النارية» مـجلتهـا، وأخذ عـشرين ألف (كـذا) أخرى، من عاصمة عربية ثانية، زاعـما لها أن المجلة الفكرية «النارية» مجلتها، وخلال ذلك أصدر العددين بما تيسر من تكلفـة، وحمل بقية المبلغين معه، وارتحل إلى عاصمة النور، والأمل!!

منازع كاتب:

كم سنة مرت، وصار صـاحبنا «قوس قزح»، مشرفا عـلى صفحات أدبية، أحسن حقـا الإشراف عليها وتحريرها، تحرير مـتابعة للواقع الأدبى، والفنى، وبأقلام رفيعة المستوى. لكـن صاحبنا «قوس قزح» سقط من عينى فجأة، إذ كتـب مقالا، من هذه المقالات التى ترصد حصـاد الواقع الثقافى لعام مضى، فلم يتوقف إلا عند عـطاء الكبار (دون غيرهم من الموهوبين)، وعند عطاء اثنين ينتميان، وينتمى إليهما.

وجاء المقال مثـيرا للامتعاض، والشعور بعـدم الحياد، والأمانة، ولم أغفر له ذلك فى نفسى قط، بالنسبـة إلى نفسى، وإلى غيرى، من جيلى، ومن الأجيال الصـاعدة، ولم يشفع له عندى تحيـته النقدية لأول مجـموعة قصـصيـة صدرت لى، وإطراؤه لحـوارها واستـثمارها للأسـطورة، وعدِّى واحدا من بـضعة كـتاب يعـدون على أصابع اليـدين، وباخت فى داخلى تحيته، وأيقنت أنه يسير فى طريق آخـر، تحدوه المجاملة والتقرب، أو يدفعه الانحياز الانتمائى إليهما.

فى تلك الأثناء، راح صـاحبنا «قـوس قزح» يصـدر كتـبا عن كـبار الكتاب، متـخطيا مسئوليتـه الأولى عن جيله، والأجيال التالية، ومـهتديا

بالحكمة القـائلة «من ليس معـه يؤخذ منه، ومن معـه يعطى ويزاد». كان حريصا، مثل كـثيرين من كتاب جيله المشتـغلين بالنقد، على دعم أواصره للعمل الوظيفى، وللتواجد المهنى، بنجوم ورواد، حتى بعد موت أحدهم، من أعمدة الأدب وعمدها.

انتهز قـوس قزح فرصة موت كاتب كـبير ونشر حديثـا، أو محاورة مطولة، مـعه، قـال إنها تمت مـعه قبـل موته، فى مـرضه الأخيـر، وكنا نعرف، إنه مـعزول فى مرضه هذا، عن كـافة الخلق، إلا من أهله، وأنه، على ضيق ذهنه، يعانى من تتابع القول، والجهد المبذول للقول.

وثارت الأوساط الثقافية ولم تقعد.

وانكفأت على قـراءة الحديث المحاورة، علىَّ أرى جديدا فـيه، يقوله الكاتب الكبـير الراحل، وخـرجت بانطبـاع واحد، لا رادّ له فى نفـسى، بغض النظر عن كل ما قاله أو كتبـه غيرى آنذاك، أن هذا الحديث المحاورة «مفـبرك» من ألفـه إلى يائه. فالمقـولات، على لسان الكاتب الكبـير، فى الحديـث المحاورة، هى نفـسها التـى قرأتها لـه فى كتبـه من قبل، فـقط، الاختيار موفق، والصياغة ماهرة وقديرة وماكرة، لم أجد الشجاعة، آنئذ أو ربما الدافع، لأقول رأيى، فى حديث محاورة، اختلقه، فـيما أعتقد كاتب مهاجر بـالقلم وبالبدن، ينتمى إلى بلدى، وانتمى إليه، وينتـمى إلى انتماء الوطن.

زوبعة.. فى فنجان :

هبت على القـاهرة، عاصفـة أخرى، من عـواصف صاحـبنا «قوس قزح»، البشوش الوجه، الواسع العينين، الذى لم أره ثائرا قط، ولا غاضبا مرة.

تناقل النمامون والمغتابون، من رواة الإشاعات (والعهدة على الرواة) خبر انقضاض صاحبنا «قوس قزح»، على مطار عاصمة عربية، فألقى القبض عليه (والعهدة على الرواة) لأنه سبق أن وجع هذه العاصمة، فى مال أخذه لمجلته الفكرية «النارية»، و(العهدة على الرواة)، فطلب مقابلة سياسى كبير، (والعهدة على الرواة) لأنه جاء على عجل لمقابلته (والعهدة على الرواة)، فأذن له بالمقابلة إثر مكالمة تليفونية، (والعهدة على الرواة)، وجلس صاحبنا «قوس قزح» إلى السياسى الكبير (والعهدة على الرواة)، وفاجأه بأنه قرأ نظريته عن الكون والإنسان والحياة (والعهدة على الرواة)، وآمن بكل ما فيها (والعهدة على الرواة)، ففاجأه السياسى الكبير بأن طلب منه أن يعلن ذلك على الملأ كافة (والعهدة على الرواة). واتصل السياسى الكبير بتليفزيون بلاده، وحجز له ساعة على الشاشة الصغيرة يقول فيها رأيه الذى آمن به فى نظريته الكونية هذه (والعهدة على الرواة).

ولم يجد صاحبنا «قوس قزح» مفرا من الذهاب إلى التليفزيون، والتحدث فيه ساعة عن نظرية السياسى الجديدة البكر (والعهدة على الرواة)، ويعلن صاحبنا «قوس قزح» فيما يعلن عن تغييره لانتمائه (والعهدة على الرواة)، ويعود إلى السياسى الكبير فيعطيه (والرقم مبالغ فيه فيما أرى) ربع مليون دينار مرة واحدة (والعهدة على الرواة) لكى «يبشر» بانتمائه الجديد فى بلاد الخواجات، بهذه الفلوسات، (والعهدة على الرواة)، وتعس كل الرواة!!.

ويعود صاحبنا «قوس قزح» إلى القاهرة، وأسأله عن كل ما قاله الرواة فى غيبته، وحقدا، فيضحك، ويقول فقط:

- وأنت.. هل تصدق؟

ولكم أود إلى الآن، أن أعرف: هل أصدق فأصدق؟ أم هل أكذب فأصدق أيضًا؟!

والحق أقول لكم إننى حيال صاحبنا «قوس قزح» أخشى أن أظهر إعجابى به، فيسخر منى الرواة، أو ضيقى به، فأفقده، وهو ما سوف يحدث إثر قراءتكم عن هذا الوجه.

كلما تذكرته، تذكرت ما أعرفه عن ألوان «قوس قزح» فى واد ضيق كالأخدود، بين قمتى جبل، من قمم جبال السلط بالأردن، فى يوم شتوى، ضاحى الشمس، لبخره ندى، ألوانه تثير الانبهار والخوف، والإعجاب والرعدة، وتسرى جميعا فى منابت الشعر.

شائعة المائة ألف :

حين اجتمعت جيوش الأرض المأجورة، من دول أجنبية مرتزقة، أغنى دول الأرض، وأفقرها، فى «حفر الباطن»، وحين كانت جيوش المستبد الأعظم من الفلاحين المأمورين، والعمال الضائعين، والطلاب الخائفين، والموظفين المذعورين تحتل أرض الكويت، مساقة إلى الذبح الأعظم، حينذاك، تسابق الكتاب المرتزقة، حتى ممن كانوا بين المرتزقة من أجهزة المستبد الأعظم، دفاعا عن الكويت فقد وقع المستبد الأعظم، فى الفخ الذى نسجوه له، واختار أن يصدق اللعبة، ويقع فيها باختياره، وفق حساباته الداخلية والخارجية الخاصة.

وبين المتسابقين، كان صاحبنا «قوس قزح»، فقد أشيع، (والعهدة على الرواة) أنه سارع بالذهاب إلى مسئول الإعلام الكويتى، وقال له بثقة مطلقة، إنه لديه عن المستبد الأعظم وثائق تبدد وهم المتوهمين عن فروسيته الأعظم، وبطولته القومية، ووهم زعامته لفقراء العرب، أفراد ودولا. واستبشر المسئول الإعلامى خيرا، فهو وبلاده بحاجة إلى كل صوت عربى،

أو أجنبى، يدافع عن وطنه المسروق، فى أى إعلام، وبأى وسيلة إعلامية كانت، وقال المسئول الإعلامى لـ «قوس قزح»:

- صحيفتنا موجودة تحت أمرك، ونحن ندفع فوراً.

فقال قوس قزح:

- ما أملكه لايملكه أحد، ولا يعرف مثله أحد. وبصدق، أنا بحاجة إلى بيت آخر سوى بيتى فى هذه المدينة، فقد ضاق على وعلى وثائقى وأرشيفى الخاص.

عندئذ ابتسم المسئول الإعلامى ابتسامة جريحة ولابد، وقال:

- كم تريد؟

قال قوس قزح لفوره:

- مائة ألف دينار، لا تنقص.

وتضاحك، ولابد، وقال:

- إلا إذا زدتموها، كرما.

فقال المسئول الإعلامى:

- لك ذلك. طلب يسير، لصديق عزيز، لوطن جريح.

وحرر له شيكا بمائة ألف دينار. وانطلق قوس قزح يكتب فى صحيفة الوطن السليب، ولم يزد ما كتبه عن المستبد الأعظم، عما يعرفه الناس، وعما كان يكتب آنذاك، وعما كان منشورا فى الكتب التى صدرت بالرافدين، من أسرار المستبد الأعظم وخفاياه.

وانطلقت الشائعة كاذبة كانت أو صادقة، فالعهدة دائما على الرواة، حين صار لقوس قزح، البيت بدلا من البُيَيْت، فى حى راق.

تغيير الماركه :

إثر معـركة أم المعارك الدولية، تـغير الكثيـر من أوراق الإعلام، فى وطن المضـحكات العربى الكبـير، وتغـير مـعها مـواقع الكتاب المـرتزقة، ومجـلات المرتزقة المعـانة، وكانت هناك مجلة تعـان من المستـبد الأعظم، يكتب بها قوس قزح، وعرضت نفسها للـبيع، إثر السقوط المدوى للمستبد الأعظم، وافتقاره بالحصار الاقتصادى. وتوسط قوس قزح، فجاء بالمشترى من دولة أخرى نقـيضة، وقـبض الوسيط الثمن، والمركـز الطيب فى تلك المجلة، مع تغـير المواقع. والبـقية تأتى، فـمصـائب قوم عند قـوم فوائد، وبعض الأفراد، كبعض الدول، قوس من أقواس قزح، أو كما يقولون فى وطنى: على كل لون «يا باتستا»، فى نطق، أو «باتصتا»، فى نطق آخر.

والبقية تأتى فى حياة قـوس قزح المريرة، طال عمره، ومتعنا بنوادره، فلابد دائما، فى الجو، من قـوس قزح، وبين الناس، من قوس قزح، وإلا متنا هما وحزنا.

عجل جسد له خوار

الغبى :

جمعتنا أيام المحنة، إثر حرب الأيام السود الحزينة، أيام يونيو عام ١٩٦٧، فى بيت صديق كويتى، كنا من الأسى والإحباط فى دوار داخلى عميق، نتحاور وكأننا نهذى، ونضحك وكأننا نبكى، ونجرع الماء ولا نرتوى، ونأكل وكأننا نأكل آخر زادنا، ولم يعد لنا من همّ سوى النمّ فى أيام اللقاء الأسبوعية، وكأننا حين شعرنا بالعجز والقهر رحنا نأكل أنفسنا، ونأكل لحوم مواطنينا الأحياء والموتى. كنا ذوى مشارب مختلفة الطباع والمنازع، بيننا كان شاعر كبير راحل، وشاعر يمنى يجوب البلاد، ويلقى العباد، وشاعر نجم صاعد، دافئ القلب والنظرة والصوت، هو رابطة العقد، وشاعر نديم يحكى فى المجالس ذكريات السنين، ويروى أشعار الشعراء، بؤساء، وظرفاء، لايقبل النشر فى مجلة أو ديوان.

جاءت سيرة مخفىّ الذكر «العجل الجسد ذو الخوار». فقال الشاعر الكبير الراحل:

- هذا الغبى، كيف صار ذا حول وطول فى مصر المضحكات المبكيات؟

سألته:

-' الغبى، إنه أصدق وصف. أتعرفه؟

قال الشاعر الكبير الراحل:

- نعم. كنا نجتمع فى بيت أبيه. كان أبوه يقيم صالونا أدبيا أسبوعيا لنا، وكنا صفوة من شباب الشعراء والناثرين، غايتنا شرب العدس بالمرق، وقول الشعر بلا حياء أو ملق، والمنادمة والمسامرة إلى أن يؤذن ديك الصباح، وكان هذا الغبى، مثل عجل ذهبى، يجلس عند الباب مفتوح الفم، زائغ النظرة، ينظر ويسمع، وإذ يتكلم يتهته، والقول يتزاحم فى سقف فمه، كأنه يلوك طعاما لا يمضغ، ولا يبلع، ولا يلفظ. وكان أبوه، الكبير المقام، يشعر بالحزن، إذ يراه، وإذ يسمعه، ويرثى لنفسه فى سره، لأنه سيكون ذكره «العطر» فى الدنيا من بعده. وقلت لأبيه يوما فى لحظة بوح وصدق: هذا لأنكم أسرة تتزوج من بعضها البعض، ولم تباعدوا فى الزواج، كما أمر سيد الخلق، وكما يقول علماء الوراثة، وما أظنك إلا مزوّجه من قريبة له، فيكون الخلف أسوأ من السلف، وتصبح جدا لمعتوه، مثلما أنت أب لغبى. ولولا أننا كنا على فراق عند الباب، لحدث ما لا أحسد عليه، وطردت شدة طردة، من قصر الأب الكبير المقام.

دعوة على طعام:

روى لى صديق قصصى شاب، كان على صلة بالعجل الجسد ذى الخوار، وكان صديقى الطيب، وهذه آفته بين آفات زماننا، مبهورا بغناه الباهظ، وصورة الفيلا التى يصيّف بها على ضفاف بحيرة فى الجبال، بعيدا وراء البحار، مبهورا بطوله وعرضه، ووجهه الدموى، وثقته المتعالية التى لاتحد بنفسه، روى لى أنه دعاه يوما إلى طعام فى بيته، إيثاراً له، وإعجابا بقلمه، ولأنه فيما يبدو ابن ناس، لاشك أنهم كانوا من المماليك.

وذهب الصديق القصصى الشاب فى الموعد المحدد، فراعه مدخل البيت الموروث، واستقبله على الباب نوبى أنيق وسيم، وأدخله إلى غرفة عتيقة الأثاث والرّياش، مزدانة بلوحات موروثة لمناظر طبيعية، بينها لوحة هذه الفيلا التى يملكها على ضفاف بحيرة.

وجاء العجل الجسد ذو الخوار، يترنح فى روبه الذهبى، الفضى، المفصل خصيصا على قده وحجمه، وصافحه بأطراف أصابعه، وجلس على مبعدة، وأخذا يتحدثان، حتى جاء السفرجى، فتبعه القصصى الشاب إلى المائدة، وجلسا معا، يأكلان ما لذ وطاب من لحوم بيضاء وحمراء، وتفاح وأعناب، وفى مقدمتها كان العدس الشهير، المطهو بالمرق، وأحد عشر خادما نوبيا مصطفين على الجانبين، لخدمة اثنين، ولم يعتذر العجل الجسد ذو الخوار، عن عدم حضور زوجه، أو أحد من بنيه، لمشاركتهما الطعام. وفهم الصديق القصصى الشاب أنه فى النهاية، عنده، وعند أهل بيته من أبناء الناس الفلاحين.

إثر الطعام، تبعه الصديق الشاب، إلى غرفة التدخين، ولم يكن العجل الجسد ذو الخوار من المدخنين، وأثناء رشف أقداح القهوة، التى أعدت من البن والمستكة، والحبهان والعنبر، قال العجل الجسد ذو الخوار:

- أنت تعرف يا ابن الناس ازدحام وقتى، وانشغالى بأمور الأهل والخدم والحياة العامة التى فرضت على، وضيق وقتى عن كتابة المزيد من القصص، وما أريده منك بالتحديد، هو أن تكون لى، كابن، بمثابة سكرتير. أحكى لك قصة، فلن أتعب فى الحصول على موضوعها، وعليك أن تصبها فى أسلوبك الجميل، ولست أريد عائدها، فى النشر بمجلة، أو صحيفة، فهو خالص لك. هى قصتى، وعليها اسمى، ولك عن تعبك الثمن، ولا تنس أنك ستكسب خبرة بفضلى، وسوف أتيح لك

الفرص لنشر قصصك أنت، وأقـدمك إلى نجوم المجتمع، على أن يظل ما قلته لك الآن، وما سوف تعاونني فيه، سراً بيننا.

قال لى الصديق القصصى الشاب:

- اعتذرت لهذا العجل، عن أداء هذه المهمة، لضيق وقتى أنا الآخر، وحـاجتى إلى وقـتى لكتابة قـصـصى أنا، خاصـة أن رؤيتى لموضوعـات القصص تختلف عما يريده هو لها من رؤية.

عندئذ صاح به العجل الجسد ذو الخوار:

- رؤية؟ أتتكلم عن رؤية؟ أنت إذن من هؤلاء «الحمر» المستترين؟

ونادى العجْل الجسد ذو الخوار، بأحد النوبيين، قائلا له:

- أره الطريق إلى الباب.

وظل جالسا، وخرج الصديق القصصى الشاب. وقال لى:

- حقـا لم أشعر بحرج، ضـحكت. وحدثت نفسى أن الأغبـياء فى هذه الدنيا، هم أكثـر الناس خبثا ولؤما، ولفاً ودورانا، ورغـبة فى التواجد فى هذه الدنيا، حتى بعرق غيرهم، وأن الأذكياء، ليسوا بحاجة إلى شىء، من هذا كله.

كان من عادة صديقى القصصى الشاب، أن يحوّل أبدًا ما هو خاص، إلى ما هو عـام، أن يفلسفـه ويبرره. ويحوله إلى قـضية تجـريدية لا تغنى فتيـلا فى الصراع مع أوباش الناس، وشعرت نحوه هو الآخـر بالإشفاق. وأدركت أنه بات منذ ذلك اليوم، فى خوف من أن يلحـقه أذى من العجل الجسد. ألم يقل له متواعدا: أنت من هؤلاء «الحمر» المستترين؟.

مجد المصادفة :

حصل مخـرج أحمق، بعد ليلة حافلة بالطعـام، ولزوم الطعام، فى بيت العجل ذو الخـوار على مظروف مغلق، به ورق أخـضر هدية، وعلى عقد بإخراج قصة لمضيفه، ووعد بتدبير منتج لفيلمه الجديد، وكاتب صاعد يُعدْ له السيناريو اللازم.

وحـمل المخـرج السـيناريو، إلى مـؤلف أغـان، لـيـضع الأغـانى الفولكلورية للفيلم، لكن مؤلف الأغانى، لم يعجبه السيناريو، وإن أعجبته القصة كموضوع، وأصر على أن يجرى قلمه فى مشاهد السيناريو، خاصة فى حـواره. وقبل المخرج، والمـنتج، والعجل الجـسد ذو الخـوار، وأخرج الفيـلم، برؤية جديدة هى رؤية مـؤلف الأغانى، التى جـسدتها الأغـنيات الجماعية، وحوار الأبطال، فى غفلة من العجل الجسد ذى الخوار.

وجاء يوم العـرض الخاص لمشـاهدة الفيلم، وجلس مـؤلف الأغانى الشاب بجانب العـجل الجسد ذو الخوار، وأثناء العـرض، والمشاهد تترى، كان العجل الجسد ذو الخوار يلكز بمرفقه مؤلف الأغانى بين لحظة وأخرى، قائلا فى هدير مكتوم:

- أنا قلت ذلك، أنا كتبت ذلك؟ كان ينبـغى أن أعترض قبل الإنتاج عليك، ستودى بى فى داهية، وبنفسك، ستجرنى معك، أنا برىء من هذا الفيلم، هذه رؤية «حمراء» «مشبوهة»، ستوقعنى فى نقمة «العسكر».

لكن مـفاجأة العـرض الخاص، كـانت حين دوى التصـفيق إعـجابا بالفيلم، حتى من أعضاء الرقابة المشاهدين، ووقف العجل الجسد ذو الخوار حائراً كـالتائه، يتلقى تحايا وثـناء المهنئين بفيلمه العظيـم، ومشى بينهم إلى خارج صالة العرض يترنح خوفا ونشـوة، يحدث نفسه: ماذا سوف يفعلون بى، هؤلاء «العسكر»؟ وماذا يغنينى إعجـاب الناس لو غضبوا على؟ وتمنى

أن تعترض الرقابة على الفيلم، فلايصل إلى قاعات العرض على الجماهير، ويتوقف الفيلم، وينجو هو والمنتج والمخرج، وليذهب مؤلف الأغانى «الأحمر» إلى الجحيم.

وتحققت أمنية العجل الجسد ذو الخوار. اعترضت الرقابة على الفيلم. ولزم هو الصمت، وعارض المخرج والمنتج القرار، ولزم هو الصمت. أكد لنفسه أن الفيلم، بعد المشاهدة السياسية، لن يجاز، وهنأ نفسه لأنه سيصبح قضية عامة، فهو أمام الناس قد أدان الاستبداد، والعسكر، وسينسب إليه ذلك الفضل، لا إلى مؤلف الأغانى، ولا إلى السيناريست، ولا إلى المخرج، فالقصة قصته، والسلطة الغاشمة وقفت ضدها.

لكن ما حدث، كان عجيبا ومدهشا، شهد قائد العسكر مع أعوانه الفيلم وبهره وراقته الأغانى، وأعجبه الحوار، وقال لمن حوله فى ثقة وإخلاص:

- اعرض الفيلم، لو كنا كما يقول الفيلم، فنحن أولاد كلب، ونستحق التشهير بنا.

وعرض الفيلم، ونجح الفيلم، ونسى الناس المخرج، ومؤلف الأغانى، وصار الفيلم فيلم العجل الجسد ذو الخوار، ومشى يختال بنفسه بين الناس، ولم يخجل ويذكر بالخير، قائد العسكر، بعد موته، فراح يتغنى، ويكتب فى الصحف والمجلات، ويتشدق فى المجالس، بأنه وقف ضد الاستبداد فى العهد الغابر، وأن شجاعته لم يقم بمثلها كاتب، فى وجه الاستبداد، ولم يكف عن القول، إلا حين قال له كاتب مسرح قديم:

- كفى. نحن نعرف من كتب سيناريو الفيلم وأغانيه، لقد ارتكب جريمة حين «جعل من الفسيخ شربات». لقد قرأت قصتك، وشاهدت الفيلم، وليس لك من قصة الفيلم سوى اسمك، وبليتك الكبرى يا

صاحبى حين يكتب أحد يوما الحقيقة، ولسوف تعيش بقية عمرك فى «خوف» من هذا اليوم.

معى سيف المعز وذهبه:

اقترب يوم الانتخابات، لنصف أعضاء مجلس إدارة الجمعية، التى يرأسها العجل الجسد ذو الخوار. وكانت القرعة الانتخابية، قد أسقطت فى مجلس عضوية نصف الأعضاء بين عامين اثنين، وبقى النصف الآخر ليتم «بالحظ» عامين آخرين. ومن «سوء حظ» العجل الجسد، أن اسمه كان بين من أسقطت القرعة عضويتهم، فرشح نفسه للعضوية، من جديد، لكى يعود رئيسا للجمعية مرة أخرى.

وجمع العجل الجسد ذو الخوار أركان حربه الأربعة، وهم حرسه الخاص، وجوقته الشخصية بين الناس، فى عموم بر مصر، وحملة حقائبه السمسمونايت: السوداء، والبنية، والرمادية، والذين لا يسمح لأحدهم بأى كرافته بها نقطة حمراء، كان بينهم حارسه الأثير لديه، والذى أغناه بالمال، وبالوظيفة، وبالسحب على المكشوف من رأس مال الجمعية، وصيره كاتبا خاصا لقصصه هو، وأنعم عليه بحق أن يكتب قصصا ينسبها لنفسه، ويرجح أنه كان من قبل حارسا فى «شادر» لمخزن أخشاب، قال له حارس الشادر السابق:

- هذه أول مرة ياباشا، نجرى فيها انتخابات، بعد رحيل «يونس بك» عنا، وتركه لنا هذه التركة الثقيلة.

فشخط فيه العجل الجسد، وقال:

- نفعل مثلما كان يفعل يرحمه الله، لقد دبرت لهذا اليوم من قبل. ألم نضم أعضاء جددا، ليس بينهم «أحمر» واحد، أو به شبهة «حمرة»، إلى جمعيتنا قبل عام؟

قال حارس الشادر السابق:

- بلى.

قال العجل الجسد ذو الخوار:

- ألست بحاجة إلى نظارة جديدة مثلا؟

لم يفهم حارس الشادر السابق، وقال:

- نظارتى سليمة والحمدلله.

فقال له العجل الجسد ذو الخوار:

- يا غبى. فلنقل إنك بحاجة إلى نظارة، لزوم العمل بالجمعية، وزملاؤك هؤلاء أحدهم بحاجة إلى سيارة لزوم العمل أيضًا، والثانى إلى مكتب فى بيته لنفس الغرض، والرابع إلى أى شىء يخطر بباله، يتزوج مثلا، زواجا ثانيا، تأخذون المال، وتجلبون به الأعضاء الجدد بالسيارات، وتنزلونهم فى فندق، وتطعمونهم، وتسددون لهم اشتراكاتهم فى الدفاتر بتاريخ سابق، وأمام كل هذه النعم والمكرمات، يصوّتون معنا. ومن حسن حظنا أن خصومنا الذين تسللوا إلى العضوية العمومية بالجمعية، قليلو العدد حتى الآن، وأكثرهم لا يحضرون يوم الانتخابات للإدلاء بأصواتهم، والذين رشحوا أنفسهم من هؤلاء الخصوم سيجدون أنفسهم راسبين فى الانتخابات لا محالة، أفهمت أنت وهم؟

قال حارس الشارد السابق:

- وهذا التشويش الذى سيحدثونه بالجمعية يوم الانتخابات.

فقال العجل الجسد ذو الخوار:

- هؤلاء المشوشون «ذوو الكلمات المسمومة». دعهم لى، فأنا كفيل بهم، حتى لو كانوا جيشا عرمرما. سيفى «الأبيض» فى وجه كلماتهم

«الحمراء». ومال الجمعية تحت يدى وبيدى وحدها، ومعى سيف المعزّ وذهبه.

دعوة.. لمحاضرة:

حدثنى صديق ناقد، كان يرأس مركزًا من مراكزنا الثقافية، فى عاصمة أوربية، أنه دعا مهندسا مصريا شهيرا، ليحاضر المستشرقين والأجانب عن العمارة الشرقية، وخضع (وكان هذا هو خطؤه حسب قوله) لرغبة ديبلوماسى فى دعوة العجل الجسد ذو الخوار، ليشارك المهندس المصرى فى هذه الدعوة، وكانت الدعوة موجهة إلى المدعو وزوجته.

وذهب العجل الجسد مع زوجته، وابنته، وذهب المهندس المصرى وحيدا، فليس فى عرف الدعوات دعوة الأبناء، وأصر العجل الجسد على أن تكون الدعوة موجهة أيضًا إلى ابنته. ووجه الصديق الناقد حلاً لها بجعلها سكرتيرة المهندس المصرى. وقبل العجل الجسد ذلك الحل على مضض.

وكان من المقرر أن تكون محاضرة المدعوّ بلغة أجنبية حية، يفهم عنها الحاضرون ما يقوله المدعوّ، لكن العجل الجسد أصر على أن تكون محاضرته بالعربية، فطلب من الصديق أن يغير إصراره هذا، لأنه لن يفهم عنه محاضرته أحد سواه، وسوى المهندس المصرى، وليست هذه هى الغاية من الدعوة، فقال العجل الجسد بتعال للصديق الناقد:

- أنت تعرف هذه اللغات الأجنبية، سأتكلم أنا بالعربية، وتقوم أنت لى بالترجمة الفورية.

فغضب الصديق الناقد، ورفض قائلا:

- إنك تتجاوز حدودك معى، ولن أتجـاوز حدود عملى كرئيس لهذا المركز الثقافى، فتصـرف كما تحب، اطلب من قريبك الدبلوماسى فى هذه العاصمة الأجنبية أن يحل لك مشكلتك.

واتصل العـجل الجسـد بقـريبه الديبلومـاسى، وطلب منه بجـرأة أن «يأمر» الصديـق الناقد، رئيس المركز الثقـافى بالترجمة لما يقـوله، فقال له قريبه:

- ليس ذلك من سلطتى معه، ولا من حـقى. وليس معى أحد يقوم لك بهذه المهمة.

وبرطم العجل الجسـد ذو الخوار غاضبـا، لأن أحدا لا يريد أن يفهم مكانته ككاتب كبير، واضطر إلى إلقاء محاضرته بالعربية لغير مستمع.

ودعا المهندس المصرى، الصـديق الناقد، والعجل الجسـد، وزوجته، وابنته لدعوة على غداء احتفالا بالمناسـبة، وبفوزه بجائزة كبيرة من بين عدد كبير من المهندسين الأجانب.

وعلى المائدة أثير، بين ما أثير من حديث، حوار حول «اتفاقية كامب ديفيـد» وآثارها على الوضع الثقافى والحـياة الثقافـية المصرية والعـربية فى الخارج، وذكر الناقد المصرى رأيه المتحفظ كعالم، قال:

- أنا رجل عـالم، وصلتى بالسيـاسة صلة علمـية، وتقـييمـى لهذه الاتفاقـية أنهـا تمت فى وقت غيـر مناسب مصـريا وعربيا، وأنهـا لم تكن اتفاقـية سلام عـادل، وشامل، يضم كافـة الأطراف المتنازعة، ولذلك فـقد سببت حرجا شديدا للمسئـولين عن الثقافة العربية فى الخارج، من العلماء المصريين، والعـاملين فى المراكز الثقافـية، فالعرب هنا، فى هذه العـاصمة

مثلا، يتحرجون من القدوم إلى المركز، ومقابلة المسئولين به، بسبب موقف دولهم من اتفاقية كامب ديفيد، وتمثيلنا نحن لمصر التى كانت أحد طرفيها، وحين يتجرأ أحدهم، لايأتي لمقابلتي إلا سرًا، وليلا، حتى لايراه أحد من أهل بلده، ولا يؤخذ عليه قدومه إلى مركزنا العربى، المصرى.. وفى اعتقادى أن هذه الاتفاقية أضرت بمصر، وسببت لها ولنا حرجا شديدا مع العرب.

عندئذ ثار العجل الجسد ذو الخوار، هبّ واقفا غاضبا، وقال بهياج:

ـ إذن فأنت من هؤلاء «الحمر» الذين تسللوا إلى مواقع الثقافة، حتى فى الخارج.

والتفت إلى ثورته الهائجة الحاضرون بالمطعم من الأجانب، وأخذوا يتابعون المشهد فى دهشة، ويسمعون كلاما غاضبا عنيفا لايفهمونه، فقال الصديق الناقد للعجل الجسد بهدوء بالغ:

– اجلس، واحترم المكان ومن فيه، حدثتك كعالم عن رأيى، اجلس وتناقش وأدر حوارا معى، بدلا من هذا التعصب، وتلك الثورة، ولقد قلت رأيى هذا لرئيس بلدنا أنور السادات، ولم يغضب غضبك هذا، وكان اعتذاره أنه لا يجد حلا آخر، عاجلا.

ووقفت زوجة العجل الجسد، وأجلسته وهى غاضبة، وحزينة، قائلة:

– اجلس يا غبى.

فجلس الغبى مطيعا، وأخذت تعتذر للصديق الناقد، وللمهندس المصرى عن سلوك زوجها العجل الجسد، وكان وجهه منتفخا «وأحمر»، ولم يرو لى الصديق الناقد بقية ما حدث.

أرض روم :

إلى «أرض روم» ينتسب أجداد العجل الجسد ذى الخوار، ومنها جلبت امرأة فى القرن الميلادى التاسع عشر، وحملت إلى مصر، كانت جميلة ملونة العينين، فأهديت إلى قصر الخديوى، وصارت بين وصيفات الخدمة فى القصر، وحملت لقب أسرتها فى «أرض الروم»، وصارت به تعرف. وزوجوها من أعرابى، ليهنأ بلونها الأشقر، وعينيها الزرقاوين الصفراوين، فيكف عن قطع الطريق فى الصحراء، ومن قبل فتح العثمانيون ديار قومها (فى جمهورية جورجيا وتركيا الآن)، فى القرن الميلادى السادس عشر وصار رجال من أهلها قوادا فى الجيش العثمانى: أحدهم قتله أهل الشام إثر نصره عليهم لقسوته. وثانيهم قتله السلطان بتهمة الخيانة العظمى للدولة. وثالثهم اختفى ذكره وذكر أسرته من بعده فى التاريخ الجيورجى والعثمانى معا، وبقى العجل الجسد ذو الخوار، يتغنى بمجد الإقطاع، والعثمانيين، ويلعن الجيورجيين وأسلاف الجيورجيين، فى بلاد القفقاس، ويندب زمانا يحياه، ويزاحمه فيه أبناء الفلاحين.

التمرجي

في حياتنا المصرية الثقافية كتبة تعلموا تعليما متوسطا، بعضهم موهوب، وصار كاتبا عصامياً قديراً ثقّف نفسه بنفسه، وأكثرهم غير موهوب، ووقف به تعليمه المبتور، وانعدام موهبته، دون أعتاب الثقافة، والقدرة على الكتابة، ومع ذلك صاروا كتبة، يحسبون بين الكتاب. ولكثرتهم، وإلحاحهم، وتعاونهم السرّي، صاروا خدناء، وقهروا مبدأ الطبيعة والاجتماع الأقوي: البقاء للأصلح، والأقوي، والأجود. فزاحموا، كأعشاب المزارع، في الساحة الثقافية، وصاروا بالإعلام، والزنّ، وابتذال النفس، وضعف الكرامة، مشهورين بين قراء متوسطي الحال مثلهم، داخل الوطن وخارجه، طوال ربع قرن من الزمان.

والتمرجي.. واحد منهم.

لصّ قصص:

تجنبت زمنا، حتى فرق الدهر بيننا، أن أكون واحدا من حملة الحقائب ليوسف السباعي، واحدا من هؤلاء الكتبة الأقزام، الذين يحيطون به، ويمتدحونه، ويناقضونه، ويهاجمون المثقفين الذين يعارضونه في

الندوات، بالصياح والتصفيق، لكى يعملوا بالمكافأة معه، بعشرة جنيهات، أو بعشرين جنيها، فى واحد أو أكثـر من هذه الأندية ومصالح الثقافة التى يرأسها.

وحين ولى يوسف السباعى مؤسسة دار الهلال، سارع بإصدار مجلة «الزهور» الأدبية، كملحق لمجلة الهلال، لينشر فيه الأدباء الشبان، فى ذلك الزمان: أشعارا، وقصصا، ونقدا أيضا، مما لايرقى مستواه للنشر بمجلة «الهلال».

وربما، من باب الفضول، ولمعرفة مايجرى من حولى فى الحياة الثقافية، اشتريت عددا من «الزهور»، وحرصت، حين انفردت بنفسي، أن أحتمل قراءته من بدايته إلى نهايته.

واستوقفتنى قصة لشاب لايزال ناشئا فى الساحة الأدبية، لم أكن أعرفه بعد. فوجئت بجرأة ذلك الشاب، وبجهل المسئولين عن تحرير «الزهور» بالأدب العالمي. كانت تجربة قصته، وأحداثها، وشخوصها، مسروقة ومحتذاة، عن قصة «تشيكوف» الرائعة «الأسي»، والمترجمة إلى العربية مرارا. وكانت قصة «تشيكوف» تحكى عن مزارع روسى فقير، يسحب زوجته المريضة على زحافة فى الثلج، من القرية إلى المدينة، كى يعالجها الطبيب وكان يحمل معه صندوقا من الخشب نقشه بيده نقشا بديعا، هدية للطبيب، المعالج.

قلت لنفسي:

«لص قصص» عديم الحيلة. فقير الموهبة، ضحل التجربة واللغة، يطمح إلى أن يكون شيئا.

ونسيت ذلك الأمر، إلى أن التقيت بلص القصص. قدمه إلى صاحب، فقلت للص القصص على الفور:

ـ يا ابني. من تشيكوف؟ ومن واحدة من أشهر قصصه فى العالم، وأروعها، وتحول قصته الرائعة إلى مسخ؟ كيف؟

ابتسم «لص القصص» كلص، وقال لى مراوغا بتبجح، دون أن يظهر أى ذعر:

ـ توارد خواطر. أنا لم أقرأ قصة تشيكوف هذه.

تأملته لحظة. بدا لى مثل «تمورجي»، فـقد الحس، والكرامة، وصار خلية تسعي، صندوقا من اللحم الأسمر الأصفر، له رأس بلا عنق، ووجه مليث، مغروس بين كتفين بلا عظام، وفم منضغط كأنه بلا أسنان، وعينان متنمـرتان كعيون العرِس، تبـديان استعدادا لأى عـمل، وأى خدمة، وأى تواجد، شعاره: اخطف واجر.

وحين حدثت صاحبى بخاطرى عن شـبه «لص القصص» بالتمرجي، الذى يأكل خفية طعام المرضي، ضحك، وقال لي:

ـ هو فعلا كـان تمورجيا، يمسح البلاط، حين كـان مجنداً بالجيش، وقبل ذلك كـان تمورجيا بمستشـفى عام. وحين خرج من الجـيش، كان قد تخرج من مدرسة للمعلمين بالمدارس الابتـدائية، وصار معلما، وربما صار كاتبا، وفـد إلى القاهرة، وتسلل إلى «يوسف السبـاعي»، فكان واحدا من الكتبة، حملة الحقائب.

أيقنت، عندئذ، أن مثله سوف ينتشر كـحشائش المزارع، ويغير على وجهه الأقنعة.

ثنائى الشر:

كنا جـالسين على مـقهى ريـش. كنا ثلاثة، وكـان الوقت عصـرا: عبدالحكيم قاسم، ويحيى الطاهر عبدالله، وأنا. ولم يكن «لص القصص»

من زبائن المقهى يوما ولا صديقا لأحد منا. لكننى فوجئت به ذلك العصر، يقبل نحونا مسرعا، يتنقل بين المناضد، على رصيف ريش، ويضع وهو فى طريقه إلينا نصف ورقة على كل منضدة، خالية كانت المنضدة، أو يجلس إليها شخص أو اثنان، لايعرفهم «لص القصص». وحين وصل إلينا، وضع أمامنا ثلاثة أنصاف ورقة، وهو يقول لنا، وكأنه واحد منا:

ــ فضيحة، خيانة لكل المثقفين، وللوطن.

قلت له:

ــ اجلس، ودعنا نقرأ، ونفهم.

فقال بعجلة:

ــ ليس الآن، ورائى مهمة قصوي، توزيع هذه الورقة الخطيرة على المثقفين.

وانصرف عنا مسرعا، حاملا فى يده رزمة الأوراق المصورة.

قرأت الورقة التى وضعها أمامي. كان بها خبر مطبوع فى صحيفة عربية نقلا عن صحيفة اسرائيلية. وكان الخبر فعلا خيانة وفضيحة، فقد جلس آخر كتاب عصر المماليك الثائرين، مع ناقد اسرائيلى، فى مؤتمر أدبي، فى عاصمة أوربية، وتعشيا معا منفردين، وتعاقد معه الناقد الاسرائيلى على نشر مجموعة قصصية له فى اسرائيل. ووجدتنى أقول لنفسي:

«عجيب، كيف وهو يظهر لنا فيما يكتبه هنا وهناك: فى مصر، وفى العراق، والجزائر، وسوريا، والسعودية، والكويت، والإمارات، وجها قوميا. يلعب على الحبال كلها. نعم، لكنه لم يكن قد وصل إلى هذا الحد. مع اسرائيل؟ كيف؟

وقلت لصاحبي:

ـ سوف أواجه آخر كتاب عصر المماليك الثائرين، عندما يعود من سفره.

وبلعت ريقي، فقد خطر لى أن «لص القصص» صديق حميم لآخر كتاب عصر المماليك، وصديق ملازم له إلى درجة مريبة، وليس أحدهما بأسوأ من صاحبه ولا أفضل، لكنهما صديقان، فكيف يطعن صديق صديقه فى ظهره وفى غيابه، ويمشى متسللا، يوزع خبرا ضده؟ صحيح أن «لص القصص» هو التابع «قفة» لكن.. فكرت أن صداقتهما ربما تكون قد انقطعت، وربما أن «قفة» غار من سيده لسفره وحده دونه، وتعاقده لطبع مجموعته فى اسرائيل. ولأن أحدا منهما لا ولاء له حقيقى إلا لنفسه، فمن السهل عليه أن يطعن خدينه فى ظهره، وفى غيابه. وسألت نفسي: ترى كيف سيعود الخدين إلى خدينه، بعد أن كشف «قفة» سرّه؟ ولمعرفتى بقسوة آخر كتاب عصر المماليك، وروحه المنتقمة، قررت أن عودتهما إلى الصداقة أمر مستحيل، فثمة كرامة قد جرحت، وعرض قد هتك علنا وعلى الملأ، ولسوف تكون هذه العودة أكثر استحالة، حين تتم المواجهة بينى وبين آخر كتاب عصر المماليك.

لكننى فوجئت برغم المواجهة، بأن الاثنين لايزالان صاحبين حميمين، وخدنين متلازمين، يتلفن أحدهما لصاحبه كل يوم، بل كل ساعة، وينقل له الأخبار عن الآخرين. ويتفق كلاهما على خطط التسلل والأذي، والارتزاق، والنجومية، وينشر هذا أخبار ذاك وصوره، فى صحف ومجلات مؤسسته الصحفية، من باب الإعلام والدعاية، و«بص شوف فلان بيعمل إيه»، وكأن ما بينهما أكبر من الخلاف، أو كأن هذا التجريح والفضح من «لص القصص» لآخر كتاب عصر المماليك كان هدفا

متفقا عليه بينهمـا، ربما أيضا من باب الدعاية، والسعى إلى أن يكون نجما بالإعلام، والزن على الآذان، بالخبر والصـورة، بين أسبوع وآخر، حتى لو كان هذا الإعلام، وذلك الـزن، إعلانا عن فضيحـة، لكى يبقى الاسم فى السوق، وتدوم الشهرة.

عسكرى مراسلة :

أواخر السـبعينيات، كنت فى زيارة لـلصديق «فاضل الشاهر» بمكتـبه بسفـارة العراق، بشـارع مظهر بالزمـالك، كان «فاضـل» ملحقا صـحفـيا بالسفارة، ولأنه كـان شخصية ممتـازة، ومحبا للثـقافة والمثقفين، وعـاشقا لمصر، وأهل مصر، وقـومى الفكر، فقد صار صديقا لكل المثـقفين تقريبا. واعتدت أن أزوره بالسفارة، وفى بيته، كلما دعاني، واعتاد أن يزورنى فى بيتي، كلما دعوته.

وضحى يوم كنا جـالسين: أنا و«فاضل» نتـحدث على انفراد بمكتـبه بالسفارة. ودق جرس التليفـون، ورفع فاضل السماعة، وأنصت لحظة، ثم قال لمحدثه باستعلامات السفارة:

ـ دعوه يأتى إليّ.

ووضع فاضل سماعة التليفون، وقال لي:

ـ شخص لحوح، وثقيل الظل، لكننى سأصرفه بسرعة.

وتوقف الحديث بيننا. ورحنا نرشف الشاي.

طُرِق الباب، وسمع القادم من يقول له:

ـ ادخل.

ودخل القادم اللحوح، الثقيل الظل. وفوجئت بالقادم. هو بعينه «قفة»، «لص القصص»، «صندوق اللحم المليّث».

مدّ يده إلى مصافحا، ولم أرد أن أخجله، على قرفى منه، أمام عراقي، فأعطيته أطراف أصابعي، قائلا:

ـ أهلا.

ولم يدعه «فاضل» إلى الجلوس معنا. وتركه واقفا، ونهض، وعاد بمجلة من فوق مكتبه، وطوح بها نحو وجه «لص القصص» قائلاً:

- مجلة الجندى، خذها، واكتب لها صفحتين أخبار.

وقعت المجلة على الأرض، وقد كادت ترتطم بوجهه، فانحنى «لص القصص» بلهفة، وأخذ المجلة بلهفة، واعتدل واقفا، قائلا بامتنان:

- شكرا. بعد يومين، ستكون عندك أخبار الصفحتين.

وقال له فاضل، وهو يجلس، ليصرفه:

- اذهب.

وانصرف «لص القصص». وشعرت بالغضب من فاضل لأجله.

غضبت لأنه مصرى مثلى، حتى لو كان «لص قصص»، وقلت لفاضل، بعد أن ذهب «لص القصص»:

- لماذا تعامله هكذا؟

فقال لى فاضل بتأفف:

- وماذا أفعل له، وهو يبتذل نفسه؟ هل أعامله باحترام؟

ولم أظهر فهما لما قاله، وساد بيننا حرج الموقف، فقد كنت لا أزال مغتاظا، فعاد فاضل يقول لى:

- ماذا أفعل يا صاحبى؟ كل يوم يذهب بسيارته إلى بيتى، ويدق الجرس. ويسأل زوجتى عما تريده من السوق، فتعطيه السلة والنقود، ويذهب بالسلة فعلا إلى السوق، ويشترى لها ما طلبته، ويعود إليها بما اشتراه. يوميايفعل ذلك، حتى ولو قالت له يوما، إنها لا تريد شيئا، فلديها لحم وخضر وفاكهة تكفينا أسبوعا، ففى اليوم التالى يعود إليها، ويسألها: هل تريدين شيئا من عند البقال، يوميا يفعل ذلك، ولا يخجل، ولا يحترم نفسه، وكأنه بلا عمل آخر يذهب إليه، مع أننى أعلم أنه يعمل بمؤسسة صحفية، وبمكتب من مكاتب الصحف العربية، أين يجد وقتا لهذا كله؟

فقلت لفاضل:

- اعذرنى. انهره.

فقال لى فاضل:

- فعلت. ونهرته مرارا، طلبت منه أن يتوقف، لكنه لم يتوقف، وألح ليخدم، قائلا لى إنه يحبنى، وإنه يريد مساعدتى، وإنه يحب أن يخدم صاحبه.

وزفر فاضل، وتنهد، كمن وقع فى مأزق، وقال:

- والأفظع من ذلك، لأنه يصر على راحتى، ويحب الخدمة، يذهب كل يوم إلى مدرسة الأولاد، وينتظر دق الجرس الأخير بالمدرسة، ويعود بهم بسيارته إلى البيت.

وسكت فاضل لحظة. وقال، والدهشة لم تفارقنى بعد:

- قل لى بربك. ماذا أفعل؟

ضحكت عندئذ، فقال لى:

- هل قلت ما يضحك؟

فقلت له:

- العفو. لا. إننى أضحك فقط، لأنه صارت لديه سيارة.

فعاد يقول لى بتوسل:

- كيف أوقفه؟

فقلت له:

- لا تعطه مجلة ليكتب بها. أوقف تعاملك معه، وسوف يتوقف، وكأنه لم يعرفك قط.

فقال لى فاضل:

- أعرف ذلك، لكن، كما ترى، أنا ممثل لبلدى فى سفارة، وبحاجة إلى مثله لأخبار وإعلانات عن بلدى، ولبلدى، ولا ينبغى لى أن أحوله إلى عدو.

فى تلك اللحظة دق جرس التليفون، ورفع فاضل السماعة، وأنصت، ثم قال:

- حاضر. حاضر. سأتصرف. مع السلامة.

ووضع فاضل السماعة، ثم رفعها، وضرب رقما داخليا، وقال بعد لحظة:

- سيادة السفير (كان السفير هو سمير نجم)، (فلان)، رئيس تحرير صحيفة (. . .) اتصل بى الآن، وقال لى إنه لم يعد لديه ويسكى، وإنه يريد زجاجتين، إلى أن يدبر أمره. .

وأنصت «فاضل» لحظة، ثم قال:

- حاضر. حاضر. سأفعل.

ووضع السماعة، ثم عاد يرفعها، وضرب رقما داخليا، وقال:

- أرسلوا إلى بيت (فلان) صندوقين من الويسكى الفاخر، الآن. هذا أمر السفير. أنا فاضل الشاهر.

ووضع فاضل السماعة، واستدار بوجهه لى، ولم أستطع أن أحجز نفسى، فقلت لفاضل:

- فلان هذا ضد كل ما هو قومى، هذا ابتزاز.

فتضاحك قائلا:

- نحن دولة، ولا نريد أن يهاجمنا أحد، وهو فى منصب إعلامى خطير.

وقلت لفاضل:

- فهمت. كان الله فى عونك على عملك هذا.

فقال لى فاضل:

- لا تكن مثاليا. فى السياسة: الغاية تبرر الوسيلة، وكما تقولون: اللى تغلب به العب به.

وغيرنا مجرى الحديث، وانصرفت، ذهبت إلى مقهى ريش، وجلست وحيدا إلى أن جاء صديق، أول صديق، وكنت بحاجة إلى البوح والفضفضة، فحكيت له مواقف «لص القصص» مع فاضل الشاهر، فضحك وقال لى:

- هو فعلا يحب أن يخدم، اعتاد ذلك، فقد كان عسكرى مراسلة لضابط كبير، كانت مهمته فى الخدمة، هى بيت هذا الضابط، فلم يتدرب على سلاح، ولم يقم بتدريب، ويبدو أن داء الخدمة يلازمه، وسيظل يلازمه، حتى لو توقف فاضل وغيره عن جلب منفعة له، وتحقيق مصلحة لأجله وملء محفظته بنقود.

إصدارات المركز

الكتاب	الطبعة	المؤلف
دفاعاً عن حق تكوين الجمعيات	١٩٩١	أمير سالم
حقوق الإنسان وتأخر مصر	١٩٩٣	مجموعة من الكتاب
دستورية حقوق الإنسان	١٩٩٣	د. وجدى ثابت غبريال
خرافة التنمية أو السوق العالمى لتجارة الجوع	١٩٩٤	أمير سالم - د. علاء غنام
البنك الدولى «الحكومات وحقوق الإنسان»	١٩٩٤	مترجم اللجنة الدولية للمحامين الأمريكيين
حقوق الإنسان معارك مستمرة بين الشمال والجنوب	١٩٩٤	أمير سالم
المواطنة المنقوصة «تهميش المرأة فى مصر»	١٩٩٥	د. مارلين تادرس - عبد العزيز الشبينى - أميرة عبد الحكيم
حرية الإبداع وحقوق المبدعين	١٩٩٥	مجموعة المنتدى الفكرى الأول
محكمة سيناء الدولية	١٩٩٥	أمير سالم - محمد عبد العال
الريشة ضمير الوطن	١٩٩٥	مجموعة من رسامى الكاريكاتير
مولد يادنيا «كاريكاتير عن الانتخابات»	١٩٩٥	رؤوف
عالم بلا أغلال	١٩٩٦	جلال الجميعى
المرأة الأفريقية بين الحكم والدين	١٩٩٦	د. محجوب التيجانى
الفعل الثقافى فى سبيل الحرية	١٩٩٦	تأليف : باولو فريرى ترجمة : إبراهيم الكرداوى
التاريخ الفكرى والسياسى للإعلان العالمى لحقوق الإنسان	١٩٩٦	تأليف : ألبير بابيه ترجمة : د. محمد مندور
الدين والدولة فى السودان	١٩٩٦	د. محجوب التيجانى
نبلاء وأوباش	١٩٩٦	سليمان فياض

فهرس

رقم الايداع
٩٦ / ٧٥٧٧

التر قيم الدولى I.S.B.N
977 - 5421 - 09 - 8

كتاب النسخة

النسخة في اللغة تعني الكتابة، والترجمة، وأنا [illegible]
وشخوص هذا الكتاب من منتصف ثلاث، ومعظمهم أصبحوا [illegible]
في القاهرة، في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن العشرين، أو لا يزالون
يعيشون، بعضهم تزوجه كاملة، وبعضهم تخلى عنه كاملا،
يعتقدون أنهم أذكى من الآخرين، وأننا بلا ذاكرة، مع أن العين
ترى، والأذن تسمع، والقلب يرقب، والعقل يرصد، والذاكرة
لا تنسى سرا لأحد يحاول أن يخفيه.

ونسختي هذه، عن هذا وذاك، شهادة على عصر من النبل والخسة،
والصدق والزيف.

وأسرار التاريخ الشخصي والعام، لا تنسى، فالنسخة باقية،
تقال وتكتب، تحية أو إدانة لأفكار وأسرار القادمين والراحلين.